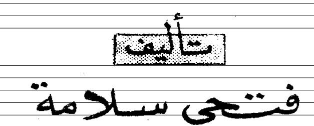
الجرار رقم ٣٥



تأليف

فتحي سلامة

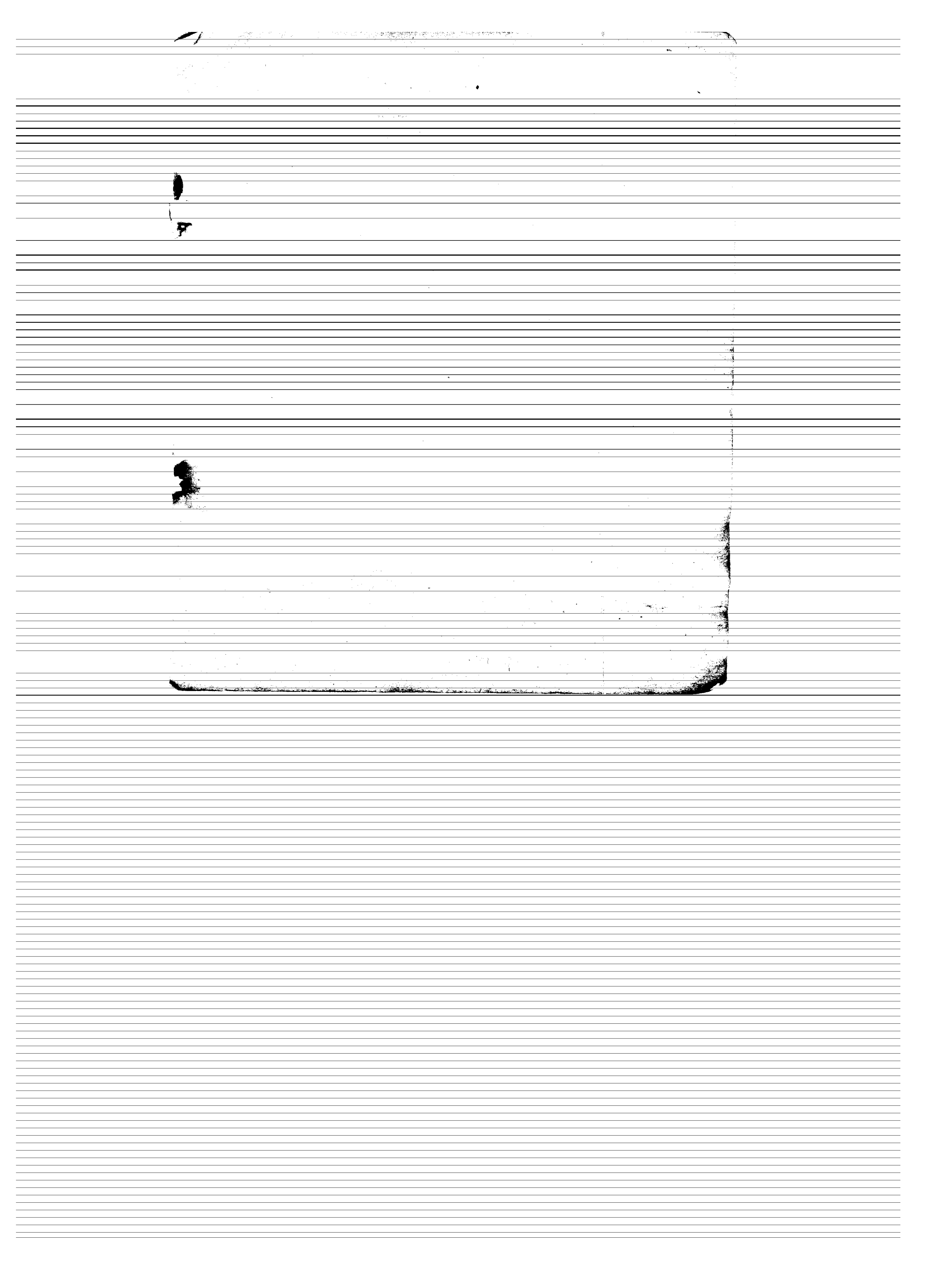
اذا كان لنــا الحق فى ان
نحلم كما نشاء ، علينــا اولا
تغيــير افكارنا كلية لتصبـح
أحلامنا ممـكنة الرؤية ومعبرا
لتحقيق حياتنا الجديدة ..

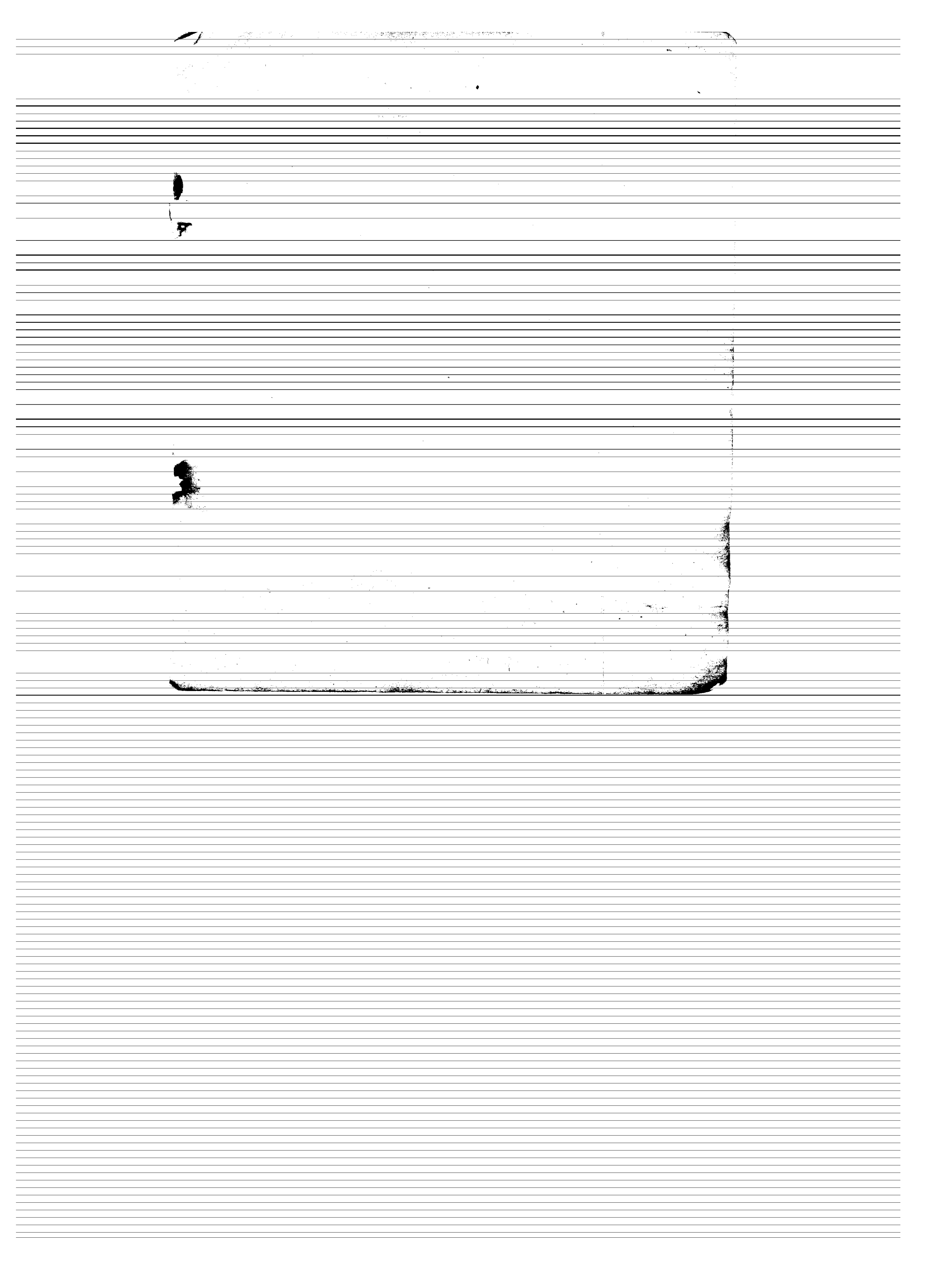
وبالفـاس والمقطف ونهـر
النيل بنينـا الأهرام واحــلام
الفراعنة ..

وبالجرار ونهر النيل سنبنى
قاعدة فوق السماء السابعـــة
لأحلامنا .

مع تحيات سائق الجرار رقم ٣٥
« ... »

الغــــلاف : عصمت محمد احمد
الرسوم الداخلية : اسماعيل دياب





نعم ....

مجموعة من الصبية . لا يتجاوز عمر اكبرنا العاشرة ، واصغرهم انا فى السابعة ، وكنا نجلس على حجر املس أمام ضريح (سيدى يوسف) ؛ نحكى مانحفظ من حواديت ونوادر ، كانت هذه عادتنا كل ليلة ، بعد ان نكون قد فرغنا من جرينا وصياحنا ، فى ليالى قريتنا المقمرة .

نعم ، ما اجمل تلك الليالى التى مضت ، وما أحلى تذكرها مع الجلوس بجوار تلك الآلات المغبرة بالأتربة والسخوم، والمنتشرة حولنا ممتدة الى ما لا نهاية وكل واحد منا مع ذكرياته انفرد بها يجذبها من ماضيه ويجترها بهدوء ، ربمـا ذكرياته مع زوجتـه واطفاله ، او مداعبات طفولته ، او حواديت صباه .

والليل فى قريتنا هادىء تمـامـا ، البيوت فى حضن القمر وذرارى القش يعبث بها الريح الرطب فترسل صوتا كأنين المطلط وفناء الطاحونة بما فيه من اكوام الرماد ، يبدو قبرا للأشـبـاح تتوارى خلف ظلال تلال الرماد ، تصحو مع كلمات الأقاصيص التى نرويها عن العفـاريت والأشباح والأرواح الشريرة و (كسـاب) يروى ماسـمعه وما حفظه منهـا ونحن ننظر فى رعب الى فنـاء الطاحونة .

ما أقرب الشبه بين تلك الليالى ، فى قريتنا البعيدة النائمة فى حضن النهر ، وهذه الليلة فى الصحراء ، أكوام الرمال وانعكاس ضوء القمر عليها ، حفيف الحشرات وهى سـائرة على الرمال . والرجال وهم جالسون حول الآلات حولهم صفائح البترول متناثرة فى فوضى حزينة ورعب فى القلوب من شيء غير معلوم ، ولكن يبدو ان هناك تباينا بين الصورتين ، ففى قريتنا كنت (عبد الستار) الطفل تداعبه احلام غير واضحة عن المستقبل ينصت فى شـوق ممزوج بالخوف الى قصص العالم المحيط به ، وهنا ، الليلة ، فى الصحراء بعيدا عن قريتى الطيبة ، عامل تداعبه الذكريات فى ليلة مرهقة يجترها فى لذة ممزوجة بالخوف .

وضحكنا جميعا حينما أنهى (كساب) الحدوتة بطريقة لم نكن نتوقعها ولكن نظرات (محمد الصياد) جعلتنا نختصر فى ضحكاتنا الى حد ما ، فمن يرى انه يقص خيرا منه وافضل ، وكما كان (محمد الصياد) صبيا قويا يعرض زعامته ، كان (كساب) هو الآخر مشاكسا [illegible] فى الزعامة [illegible] له منافسا لا يقبل الهزيمة فى سكون ، وكان [illegible] يدخل فى العراك مع اى صبى من صبيان الحارة لا تهمه النتيجة بقدر ما يهمه دخول المعركة — حقا اين انت الآن يا (كساب) ؟ ! وماذا فعل بك الزمن ؟ ! .

واجتذبت شخصية ، صديقى كساب ، بؤرة الذاكرة ، واستولت عليها واهاجت عاطفتى نحوه .. لو كان معى الآن ، فى تلك البقعة البعيدة فى الصحراء لجلسنا نقص معا حديث الطفولة ، وخاصة قصة ذلك الفقيه الذى سرق الشاى وهو يتلو القرآن وكيف ضبط وماذا فعلنا به ولكن كســاب الآن فى مكان ما ، لا اعلم عنه شيئا وهو أيضا لا يعلم .. وربما سمع أو أخبره شخص ما اننى اصبحت موظفا فى الحكومة حيث اننى دخلت المدرسة وظل هو يروح ويجيء

خلف حمار ابيه ، اغلى آمانيه أن ينجح فى سرقة بعض حبات الطماطم أو يخطف بعض الحلوى منى ، فقد كانت طباعه على نقيض من طباعى ، فبينما أنا هادىء ساكن لا افعل ولا اجرؤ ان افعل شيئا ، كان هو لا يكف عن الحركة ، واحيانا ، كنت احسده على (شيطنته) ويحسدنى هو على ملابسى النظيفة وقطع الحلوى التى تملا جيبى . ما اكثر شوقى اليك الآن يا (كساب) وما أشد لهفتى على سماع اخبارك !!

جذبنا محمد الصياد من ملابسنا حتى تقترب رؤوسنا من رأسه واخذ يقص علينا قصة (الجنية) التى ركبها (عم مغاورى) وتساءلنا جميعا :

– هل الجنية يمكن ركوبها ؟ !!

هذا شىء لا يصدق !!

وتعجبت أنا غاية العجب ، فرغم اننى اعيش وسط قرية يزيد فيها عدد الحمير عن عدد راكبيها ، الا اننى افشل دائما فى ركوب الحمار ، وكثيرا ما سخر منى هذا الولد اللعين « كساب » . فكيف يركب عم مغاورى وهو الرجل الطاعن فى السن (جنية) . لا شك انها اضخم من الحمار واكثر حركة !!! ..

أيام !! .

ما اشد سذاجة عقولنا ونحن صغار ، ولكن ما كان اشد سعادتنا بهذه السذاجة !! وحينما تخلت عنا هذه السذاجة وامتلأت الرؤوس بالعلم والمعرفة والطموح ازدادت تعاستنا وغالبتنا الأمراض والاحزان .

رحنا جميعا نتساءل ، كيف ركب عم مغاورى الجنية ، مع ما للجنية من مكر وخبث وذكاء وامكانية التشكل فى جميع الصور

فهى قادرة على أن تظهر فى صورة فتاة جميلة تجتذب عيون شبان القرية حتى اذا ما اقتربوا منها وظنوا انهم نالوها وجدوا انفسهم فى لجة النهر ، أو تظهر فى صورة ارنب مذعور يجرى خلفه الصبية فاذا ما اقتربوا منها ، قذفت بهم فى بئر الساقية ، او تتشكل فى صورة أخرى مثل بقرة او جاموسة أو حصان أو حمار ، فما اصعب اذا ركوب هذه الجنية !! ..

— نعم ، على شكل حمار .

هكـذا صاح محمد الصياد ، وهو يكمل روايته .. ظهرت الجنية على شكل حمار ، وعم مغاورى جالس بجوار الساقية وحيدا ينظر الى النهر ، ومن خلفه حقوله جرداء من غير زرع يفكر كيف يأتى بالبذور والسماد وليس لديه حمار يحمل عليه ، والحقل بعيد والفيضان يقترب ، حيث تغرق ارضه كل عام بسبب هبوط الجسر الذى يفصل الأرض عن النهر ، لو انه استطاع أن يقوى هذا الجسر بالقش والأتربة لأمكن ان يصد عنه هجمات الفيضان ولأنقذ محصول ارضه ، ولكن أفكار عم مغاورى بعيدة وحزينة ، فهو لا يملك ما يعتمد عليه فى ذلك ، فليس لديه حمار ، وظل يفكر من اين يأتى بهذا الحمار ، وظهرت له فجاة الجنية فى شكل حمار .

وتحمسنا جميعا وأصخنا السمع .

— ماذا يفعل عم مغاورى فى هذه الحالة ؟ لو حسبها حمارا حقيقيا لضحكت عليه وجذبته الى قاع النهر ، وهناك تمتص دمه وتبقى ارضه خرابا ترقص الجنية فيها كل ليلة . وكدنا نبكى لمصير عم مغاورى الرجل الطيب فى قريتنا ، وابنه صديقنا الذى يلعب معنا فى بعض الأحيان .

وأخذنا ندعو لعم مغاورى بالنجاة ، بل اخذ البعض منا يصيح فى عم مغاورى يحذره من الجنية ، ولكن محمد الصياد قاطعنا وهو يقول :

ــ هل تريدون ان تعلموا ماذا فعل عم مغاورى مع الجنية ؟ .

ــ ماذا فعل ؟ .

صحنا جميعا ونحن فى اشد الشوق الى معرفة النتيجة ، جذبنا هذا الولد العفريت الى سماعه ، وحبست أنفاسى حتى اسمع تكملة القصة ، فقد كنت شغوفا وعاشقا للقصص والحواديت بل اننى ما رغبت فى ملاعبتهم ومصاحبتهم الا انتظارا للحظة قص الحواديت فلم تكن بى رغبة على الاطلاق فى لعباتهم وسماع صراخهم وتناحرهم الدائم على شىء او لا شىء ، ولكن حبى لسماعهم وهم يقصون الحواديت والنوادر يدفعنى الى تحمل كل شىء .

وتعلقت عيناى بشفتى الصياد انتظر ختام القصة ، وكل حواسى منتبهة اشد الانتباه ، ولم يختلف عنى بقية الصبية فى هذا الاهتمام بخاتمة الرواية ، وكلما تحرك احدهم ، صحنا فيه ان يسكت ، وكلما ارتفع نباح كلب امتدت عشرات الأيدى تقذفه بالحجارة ليصمت أو يرحل . ومحمد الصياد ، وكأنه يتعمد ان يزيد من تلهفنا ، يصف كيف كان يجلس عم مغاورى والمسبحة فى فى يده ، ويده الاخرى تعبث ببعض الأمتعة التى كان يرتقها ، والجنية بصورة حمار محملة بالأتربة ترعى بعض العشب النابت على الجسر ، زيادة فى التنكر .

ولكن ونحن فى اشد حالات الانبهار والترقب الى سماع نهاية الحدوتة وما سيفعله عم مغاورى مع الحمار الجنية ، اذ بصوت كعويل امرأة يصدر من ركن فى فناء الطاحونة المهجورة ويتكرر ثلاث مرات فى كل مرة له صدى ، واتجهت ابصارنا المذعورة ناحية

الطاحونة فرأينا اشباحا تتحرك بسرعة مهرولة ، وفى هذه اللحظة صاح احدنا :

ــ عفريت ... عفريت ...

وكانت هذه الكلمة كافية لان تجعلنا ننطلق ، جميعا ، كأرانب مذعورة يدفعنا الخوف من العفاريت نتخبط فى الأزقة الضيقة المظلمة التى لا يصلها ضوء القمر ، والحمد لله ، كان منزلنا قريبا ، فارتميت على باب المنزل ادق بيدى وقدمى وانا انتفض من الخوف والرعب ، التصق فى الباب واهزه وكان شيئا مخيفا يقف خلفى مباشرة ، ومضت لحظات كانها الدهر كله واستقبلتنى امى متسائلة ، ولكنى انفلت منها بسرعة ورحت اعدو صاعدا السلم حتى وصلت الى فراشى وارتميت عليه وامى خائفة ملهوفة تخشى ان يكون مكروها قد مسنى ، وانا وحيدها ، وراحت تهدهدنى ، وتضمنى الى صدرها وتداعبنى وتمنينى ببعض الأمانى ، حذاء جديد وجلباب جديد ، وبيض بالسمن بل وعدتنى بشراء علبة كبيرة من العجوة احتفظ بها كلها لنفسى ، ولكن كل هذه الأمانى والوعود والكلمات الجميلة لم تفلح فى ابعاد الخوف من العفريت .

كم انت رحيمة يا امى ، وكم كنت حنونة ، وكم من الامانى كنت تعقدينها على . ولكن يا امى الحبيبة رغم هذا الحنان والحب ضيعت امانيك ، ومزقت احلامك ، وقذفت بآمالك فى جوف بئر الخوف ، ودفنت فرحتك فى رمال اخطائى وسوء تصرفى .

حقا ، كم كنت رحيمة حينما رحت تهدئى من روعى وتقصى على قصصا جميلة ، الشاطر حسن والأميرة نوار ، وبدور ام الدهب المنتور ، وعقلة الصباع الشجاع ، ولكن لا فائدة ، فقد كانت النافذة مفتوحة امام عينى وانا فى احضانك على فراشى وعلى الحائط المقابل للنافذة تتراقص مجموعة هائلة من الأشباح ، وتلهو احيانا

وتصرخ احيانا ، والصوت الذى سمعته فى فناء الطاحونة المهجورة يتردد ، وكلما نظرت الى سقف الحجرة رأيت اشباحا اخرى على شكل سيدات عرايا ، جنيات .

وبالطبع كنت ساذجا فى تلك الليلة ، فقد اكتشفت ، فيما بعد .. بعد ان كبرت .. ان هذه الأشباح التى ظهرت على جدار الحائط المقابل لنافذتى ما هى الا تهدم بعض طلاء الجدار فكونت القشرة البيضاء من الطلاء مع لون الطوب الأسود صورة هذه الأشباح ، وكذلك تلك الأشباح التى ظهرت على سقف الحجرة – كانت انعكاسا لضوء اللمبة على ستائر السرير المحلاه بنقوش على شكل راقصات .

ورغم الخوف الذى سيطر على فى هذه الليلة الا اننى ظللت اتساءل ماذا فعل عم مغاورى بالحمار الجنية ، وكيف استطاع ركوبها ؟ !!

واحسست بشدة برودة جو الصحراء من حولى ، فأخذت اندس فى فراشى واشد حبال باب الخيمة .

- ٢ -

صحوت من نومى ، بعد تلك الليلة المليئة بذكريات الطفولة واحلامها ، على نباح كلب ، واثار دهشتى ان اجد كلبا هنا فى المنطقة الصحراوية القاحلة والتى تبعد كثيرا عن العمران ، لا يجاور معسكرنا سوى بضعة خيام لبعض البدو الرحل يتنقلون خلفنا من مكان الى آخر ويتعيشون من الأعمال التى يؤدونها لنا ، يصنعون الشاى أحيانا ، واحيانا اخرى يساعدون فى حمل متاع المعسكر ولوازمه ، وفى الغالب لا يصنعون شيئا سوى حراستنا من بعضهم البعض . وهم — فوق ذلك — اناس طيبون ، وكثيرا ما قدموا لنا خدمات هامة فى هذه المناطق الصحراوية التى تجدى فيها الخبرة أكثر من الكتب — وبالطبع ليس من عادة هؤلاء البدو اصطحاب الكلاب ، وان كان بعض البدو الرحل يفعلون ذلك ، فهؤلاء لا يفعلون وربما يرجع سبب ذلك لقلة مواردهم الغذائية فوجود الكلب ، كان بالفعل شيئا يثير الدهشة والعجب وسبب تجمع العمال حوله يلاطفونه ويداعبونه ويتحدثون اليه وكأنه يفهم ما يقولون — على الرغم انه ظل ينبح بشدة ، وتقدمت نحوهم ، بدافع الفضول انا الآخر ، ولكن (طلعت) صاح حينما رآنى ، قائلا :

— هذا الكلب عنده عقدة الاغتراب ! ويحتاج الى خدماتك .

فهمت ما يرمى اليه (طلعت) ولكنى تظاهرت بالعكس ، فأضاف قائلا :

ـ حالة تستحق الاهتمام ، ارنى كم انت اخصائى اجتماعى شاطر !

وقد نسيت فى خلال حديثى السابق ان اقول ما يدل على طبيعة عملى ـ معسكرنا هذا جزء من مجموعة بعثات الاستكشاف التابعة لمؤسسة استصلاح الأراضى الصحراوية ، نبحث عن الماء فى جوف الصحراء واعمل كمشرف للاعاشة فى المعسكر ، واحمل مؤهلا عاليا فى الدراسات الاجتماعية ـ وهذا المؤهل رغم عدم جديته هنا ، جعلنى موضع احترام بالغ كخبير فى النفس البشرية فى المعسكر وايضا فرصة بالنسبة لطلعت لكى يسخر منى ما شاء له ذلك ! حتى انه يجعلنى اشعر بشىء من النفور منه احيانا .

وبغضب هائل نحو الكلب الذى ينبح والذى اعطى الفرصة لهذا المهندس (طلعت) أن يذكرنى بتخصصى العلمى بهذه الطريقة الساخرة تقدمت مخترقا حلقة العمال المطبقة حول الكلب ، ثم استدرت ناظرا اليهم صارخا فيهم بالابتعاد والتفرق . ودب الذعر فى قلب الكلب الصغير فلاذ بالصمت وهو يئن انينا مؤلما ، جعلنى اتراجع فى خجل .

و (طلعت) دائما يثير نقاشا حول مسائل التخصص هذه ، ويتحدث عنها بشىء من التهويل والمبالغة ، ويتباهى دائما بانه متخصص فى ابحاث المياه الجوفية ويعمل فى مجال تخصصه مهندسا للبعثة ، ثم يدور حول تخصصى انا ويردد وفمه تعلوه ابتسامة ساخرة !

ـ متخصص فى بواطن النفوس ، ويعمل مشرفا للطعام والنوم لا يهمه سوى اقراص الجبن وعلب السردين .

حقيقة ما يقول ، ولكن اليس لعملى هذا شىء من الاهمية ؟ عد قطع السكر والبسكويت وحساب كمية الملح والعيش والعلب ،

وارسال الاعراب للبحث عن ماء الشرب والاهتمام بالخيام الممزقة ، وما الى ذلك من أمور ، أليس كل هذا مهما ؟ !

ثم اننى بعد ذلك ، أواظب على القراءة ، اقرا القصص والروايات وفى المساء بعد أن نفرغ من شرب الشاى ، ومن الحديث المعتاد ، ويجلس كل منا داخل نفسه يجتر ذكرياته وهو ينظر الى النجوم ، اتفرغ أنا لذكرياتى أحيانا ،واحيانا اخرى أشغل نفسى بالتطلع البهم محاولا الاستفادة بمعلوماتى العلمية فى الكشف عما فى نفوسهم ، وفى احدى الأمسيات قررت شغل فراغى بعد النجوم ولكننى احسست بالم هائل فى رقبتى فلم أعاود ذلك مرة اخرى .

كنا فى ايامنا الأولى بالمعسكر ، حينما اتوا بنا الى هذه المنطقة نحمل كميات كبيرة من الأقاصيص وحكايات الحب ، والكثير من القفشات والنوادر والنكات ، فوقها ذخيرة حية من الأحاديث السياسية والاجتماعية والدينية وما الى ذلك من امور الحياة ، ولكن ، بمرور الأيام تناقصت هذه الحصيلة ، وفرغ كل منا من أقاصيصه ونوادره وملحه بالاضافة الى سرد تاريخ حياته ، ثم جفت ينابيع أحاديثه ، وفقد كل منا ما يملكه من كلمات ، حتى اصبحنا لا نجد ما نتحدث فيه ، والأيام تمر والاجازات كل شهر مرة واحدة تأتى عربات (الجيب) تحمل الأوامر والطعام والعيناب بعد تحليلها وتعود بالخطابات الى أهلينا وعينات اخري للتحليل وموظف وعامل محظوظين كتب لهما التصريح بأجازة ثلاثة أيام ، وبعدها يعودان محملين بأنواع من الطعام لا نذوقه الا مرة كل شهر وبخطابات وأوامر أخرى جديدة ، ويظل المحظوظان يتحدثان عن مغامراتهما فى المدينة ثلاثة أيام ، يصفان ويحللان ويعلقان على كل ما مر بهما حتى يفرغا ، وبعدها يعود الصمت ويرجع كل منا ينظر الى داخل نفسه مرة اخرى .



وهذه المرة ، كان مجيء هذا الكلب الابيض الصغير حدثا فريدا في عالمنا فتعلقت به انظار الجميع ، واصبح الكلب النجم اللامع محط اهتمامات الجميع ، وبطل العديد من الاقاصيص ، ولكن لم يستمر كل هذا الا سويعات عرفنا فيها كل شيء ، وفقدت الحقيقة بعدها طعم الانصات والانبهار ، وذابت اطراف القصـــــة في فم راويهـــا . زميـــل جديد انضم الى المعســـكر اصطحب معه كلب الأسرة المدلل ، وفرحنا بانضمامه ، فهو ولا شك يحمل ذخـــيرة من الأحاديث والقصص تكفينا لمدة ليال ، وازداد سرورنا حين عرفنا (صفوت) في أول ليلة قضاها معنا انه كما وصفه طلعت « هوسه) .

بالفعل ظهر (صفوت) ، كما قال (طلعت) ، خفيف العقل والحركة ، يحمل أشياء غريبة ، ليس لديه فكرة ، واو قليلة عن العمل هنا ، كل مايحمله ويعلمه مجموعة كبيرة من الاســـــئلة ، وقدرة [illegible] لسرد القصص ، سعدنا به وتمنينا له طول البقاء معنـــا .

واصبح صفوت وكلبه المدلل ، الذي أطلقنا عليه ، احتراما لصاحبه اسم (صافي) تميمة البعثة ومجال حديث أهلها وموضع اهتمامها ومركز حديثها .

وفي الليلة الثـــالثة من مجيء (صـــفوت) الى المعســـكر ، وبينما أنا جالس امام الخيمة كما تعودت أن افعـــل ، وبعـــد أن ذهبوا جميعا الى فراشهم ، واذا بالـــكلب يتسلل من خيمـــة صاحبه ويجري مسرعا مذعورا وكأن شيئا أخافه ، فخشيت عليه من الضياع في الصحراء ، واسرعت خلفه أناديه ، ولـــكنـــه لم يتوقف سوى لحظات ينظر خلفه ثم يجـــــري مرة اخرى ، وانا اتعقبه ، فرحا بالتجربة التي ستجعلني بطل قصة ارويها لهم في اليوم التالي، ويمكنني ان اضيف اليها بعض الحواشي تجعلها تبدو

قصة رائعة ونادرة فكهة . واحسست فجاة بان الجو اصبح باردا
مرة واحدة وان الارض تهبط والرمال اصبحت اكثر تماسكا ،
فتنبهت الى نفسى ونظرت خلفى لاجد انوار المعسكر تبدو وكانها
فى منخفض لايظهر منها سوى شعاع من الضوء ، وسقط قلبى
وارتفع شعر راسى من الخوف ، وكأن الكلب هو الآخر انتابه
نفس الأحاسيس . فتوقف عن الجرى واقترب منى قليلا واخذ
يتلفت وهو يصدر أنينا مكتوما ، ويهز ذيله ، ويدير اذنيه فى كل
اتجاه ، ووقفت حائرا . ماذا افعل ؟ وانا اعلم ان هذه المنطقة
مليئة بالكثبان التى تبدو احيانا كالهلال واحيانا كالدوائر ،
وبعضها مملوء بالأفاعى والحشرات السامة والسير فيها لغير
المدرب يعرض المرء الى عواقب سيئة . والمعسكر يبدو كأنه فى
جانب آخر من الصحراء ، ومن كثرة وجودى فى الصحراء ومن
كثرة سماعى لقصص الضياع فيها ، انتابنى شعور حقيقى
بالضياع والموت ، وتصورت ان الوصول مرة اخرى الى المعسكر
ضرب من المستحيل لايمكن تحقيقه ، وتذكرت البعثة الالمانية
بأفرادها الستة الذين ظلوا يضربون فى متاهات الصحراء حتى
اكلتهم رغم كل الجهود التى بذلت للبحث عنهم ، وآخرون غير
البعثة الألمانية ، راحوا ضحية ذلك الوحش الأصفر الممتد الى
ما لا نهاية ، وفكرت فى الصراخ ربما يسمعنى أحدهم ، ولكن
الصراخ سيتبدد قبل ان يصل اليهم ، وفكرت ايضا ، فى السير
مسترشدا بشعاع الضوء المنبعث من المعسكر ، ولكن الكثبان
الرملية تبدو عالية والدوران حولها يعرضنى الى البعد عن المعسكر
اكثر . واعتصرت الوحدة والخوف أعصابى وتخيلت امى وهى
تبكى لدى سماعها خبر فقدى فى الصحراء ، وخالى وهو يواسيها
ثم أقاربى واصدقائى وهم يتأسفون من أجلى . وانا ، جثة هامدة
ملقاة للطيور والأفاعى والحشرات تنهش لحمى وتعض اطرافى ،
ونمل الصحراء وهو يمد خطا من الشغالة عبر صدرى فرحا بتلال



الطعام ، هكذا بسرعة يموت الانسان وهو مازال فى السابعة والعشرين من عمره ، لم يحقق شيئا لاهله ، هكذا بسهولة مؤلمة ، بعد كل الصعاب التى تخطاها ، وبعد ان يعتقد ان له الحق فى أن يأكل بعض الثمار التى نبتت بفعل حبات عرقه ، يموت ، ويموت فى الصحراء لايبقى منه سوى هيكل عظمى قبيح ، محطم ، حطمته الرياح وحيوانات الصحارى ، وربما يمر من هنا بعض الباحثين عن الماء او الآثار او البترول فيروا عظامى — ويمسك بها احدهم يتاملها ، يعتقد مرة انها عظام وحش ، بل وحش من وحوش ما قبل التاريخ . ويرد الآخر معترضا ، فهى مجرد عظام كلب او خروف أو عجل أو شىء من هذا ولكن الأول لا يقتنع تماما فيدس عظمة من عظامى فى حقيبته ليفحصها فيما بعد فربما استطاع ان يثبت ان أصل الانسان خروفا .. وهكذا تتحول عظامى الى اشياء غريبة ، الى تحف علمية يحرص عليها هواة الصيد وعلم الحيوان ! انا ! ذاتى هذه التى تتحرك وتتمرد وتبكى وتحلم وتتمنى ، بعد لحظات تصبح لاشىء ، هذه الأنا تتبخر وتتحول الى مجرد عظام غريبة الشكل مدفونة فى الرمال تحركها العاصفة وتلعب بها السيول والأمطار !

صحوت من افكارى التى ذهبت بى الى مكان سحيق مظلم ، على نباح الكلب وهو يعلو فى تردد خائف ثم يضرب راسه فى قدمى وكانه ينبهنى ، ونظرت حولى اتطلع الى ما لفت انتباه الكلب ، فوجدت فتاة بملابس البدو تتقدم نحوى ، وسرعان ماقفزت الى ذهنى صورة الجنية التى كنا نقص عنها الكثير ونحن صغار ، وتذكرت ، بالذات ، قصة الجنية التى ركبها عم مغاورى. وكلما تقدمت الفتاة البدوية نحوى ازداد خوفى وحاولت جاهدا أن اتذكر كيف استطاع عم مغاورى ترويض الجنية حتى استطاع ركوبها ، وربما لو تذكرت جيدا مافعله لفعلت مثله ولاستطعت عن

طريق الجنية ان اعود الى المعسكر ، ولكن ذاكرتى خانتنى ، رغم انني متاكد ان (محمد الصياد) في الليلة التالية اكمل لنا قصة عم مغاوري والجنية .

ما أشد سذاجة الانسان سواء اكان في السابعة ام في السابعة والعشرين ، فلم تكن الفتاة التى تقدمت جنية او شيء من ذلك بل (سالمة) ابنة أحد الأعراب الذين يعيشون حول معسكرنا عرفتنى هى قبل أن اتبينها ، ورغم انني اخصها ببعض الحلوى والعلب المحفوظة فلها عيون خضراء جميلة ، وشعر يبدو من تحت طرحتها فاحم السواد ، وجسدها يفرض تناسقه ورشاقته رغم ملابسها السوداء الكثيرة ، وحينما اقتربت منى صاحت فى دهشة :

ــ ماذا تفعل هنا ؟

واضطربت قليلا ، لقد كنت أفكر فى جواب معقول لا يجعلني أظهر أمامها بالرجل الخائف ووقع نظرى على الكلب وقلت بسرعة :

ــ انظرى .. لقد أحضرنا كلبا صغيرا ..

وكأن قصة الكلب لم تعجبها او ان الكلب نفسه لم يثر اهتمامها فقالت فى صوت رقيق الى حد ما :

ــ هذه الناحية غير آمنة .. لازم تعود للمعسكر .

ومرة أخرى خشيت ان اقول لها انني لا استطيع العودة لانني لا اعرف الطريق ، فلم ارد وتظاهرت بعدم سماعى لكلامها ، ونظرت هى الى مرة اخرى قبل أن تستدير عائدة وقالت :

ــ مع سلامة الله .

ــ سالمة ..

صحت فيها بقوة خوفي من أن تتركني مرة اخرى وحدى مع اوهامي ومخاوفي فالتفت الى وبريق يشع من عينيها ، أهاج في نفسي شيء ما رغم ضآلة اللحظة ، وتقدمت نحوي وهي تقول برقة اكثر :

— نعـــم ..

وارتفع الدم في عروقي بسرعـــة شعرت بهـــا ، واحسست بنشوة ، ونسيت الأمر كله ، هذه أول مرة انظر فيها الى سالمة كانثى ، ولأول مرة اسمع منها هذا الصوت الرقيق الانثوى الذى يختلف عن صياحها طول اليوم ، فهي معروفة بانها خشنة الطبـــع تعاملنا معاملة الغرباء الذين لا أمان لهم .. ولا يجرؤ أحد العمال التحدث معها في أمر من الأمور ، واثارتني هذه الرقة واهاجت في شعورا حاولت ان اتجاهله خلال المـدة التي قضيتهـــا في الصحراء لا أذهب الى المدينة إلا أياما معدودات لا أرتوى فيها ، اعود بعدها الى الصحراء أشد ظمأ . وحينما سمعت صـــوت (سالمة) ورأيت بريق عينيها تفتح أمام عقلي أشياء كثيرةوتخيلتها بين ذراعي ، ينبوع من الحنان والحب ارتوى منه حتى اشـــبع واكتفي . وذهب بي خيالي كل مذهب ، ولكنـــها ايقظتني من تخيلاتي بسؤالي عما أريد ، فأفصحت عن عدم معـــرفتي طريق المعسكر ورجوتها أن ترشدني . فرمتني بنظرة طويلة وتنهدت ثم سارت بجواري حتى المعسكر وهي تنظر الى بجانب من عينيهـــا وكأنها تشعر أن قصة عدم معرفتي طريق المعسكر ، قصة كاذبة اخترعتها لكي أسير معها ، فظلت منتبهة لأي حركة تصدر مني ، تنظر للطريق بعين وتنظر الى بالأخرى . وأنا أراقبهـــا وأراقب الكلب الذى سار بجواري في ذلة بعد ان عرف انه لا أمان له الا في حماية أهل المعسكر .

وعدت الى خيمتى وانا افكر فى (سالمة) وفى عيون سالمة، وجسد سالمة،ولا استطيع تذكر كل الأحلام التى عشتها فى نومى معها. فأنا تارة معها فى خيمة زرقاء وسط الرمال الصفراء نشرب ونأكل ونتعانق ، ومرة أخرى ، معها فى احدى الملاهى الصاخبة فى باريس ، رغم أننى لم أذهب الى باريس مطلقــا ، ولا اعرف الفرق بينها وبين ملاهى الجيزة ، ومرة أخرى ، ارانى معها فى الجنة أو مايشبه ذلك نقطف ازهارا لها رائحة عطرة ، ثم ارانى بجوارها على حجر معبد مكسيكى والكاهن يهم بانتزاع قلبينـــا ليقدمهما قربانا للآلهة .

نعم ، لا استطيع تذكر كل هذه الأحلام التى عشت فيها مع سالمة أقبلها وآخذها بين أحضانى واطير بها الى السماء ثم اهبط بها الى قاع المحيط ، حتى صحوت من نومى .

- ٣ -

عندما نادانى عبد الصمد الطباخ ، ظننت أننى مازلت أحلم ، فأنا أحيانا أحلم قبيل استيقاظى من النوم ، اى فى الساعة التى بين الصحو والمنام وتمر حوادث الحلم امامى وكأنها شريط متتابع من الصور اشاهد نفسى وانا اتحرك واجادل وأضحك فى الحلم ، ومع هذا أحس بوجودى الحقيقى على الفراش نصف مستيقظ ، بل ومنتبها الى حد ما للأحداث التى تجرى حولى، ولذلك حينما نادانى عبد الصمد ، هذا الرجل العجوز الأسمر، احسست بكثير من الضيق لأن صيحاته المتكررة باسمى سوف تجعل الاحلام تطير من أمام عينى وتفر من خيالى ، واصحو لأجد الرمال المتكررة فى كل مكان ، فى حذائى وفى عينى متشابكة ومختلطة بشعيرات راسى ، تثير الضيق والنفور ، وحاولت جاهدا ان اصم اذنى عن النداء ولكن محاولاته الملحة جعلت الأحلام تهرب منى واسفت على فراقها ، وكانت أحلاما جميلة حقا ، فقد كانت (سالمة) ترقص برشاقة ، والموسيقى تنبعث من مكان مجهول والرمال تحت قدميها تتلون ، مرة حمراء قانية ومرة اخرى زرقاء فى لون مياه المحيط ثم تعود الى صفرة الرمال ، وسالمة تتراقص فى دلال وتقترب منى حتى اكاد المسها ثم تفلت منى هاربة لتعود من جديد وتزيد من قربها فتثير فى القلب لهفة ، وفى اقترابها وبعدها اتحرك انا على فراشى ، وعبد الصمد يلح فى النداء ،

بتكرار متماثل وبنغمة واحدة مملة — جعلتنى انفر واقفا بغضب صائحا فيه :

— نعم ؟

— نعم الله عليك ، الفطور ..

هذا الرجل الطويل مثل نخلة فى بلاده ، النحيف مثل عود حطب على سقف داره يثير فى نفسى نوعا من القلق المبهم ، ويبادلنى هو الآخر هذا القلق ، ويعلن دائما عن غضبه وعدم رضاه بادارتى السيئة لأمور الاعاشة فى المعسكر . ناولته بسرعة مفاتيح صناديق الطعام وأنا مازلت تحت تأثير تلك الأحلام المتلاحقة التى سيطرت على نومى طوال الليل ، وجعلتنى اصحو فى كسل واشعر بارهاق شديد ، فلم يصدق الرجل هذه السهولة فى اعطائه المفاتيح والتى لم يتصورها من قبل ، ونظر الى فى شك دون ان يتحرك . وكان لابد ان يذهب هذا الرجل حتى اتفرغ أنا لاسترجاع أحلامى ، واستعيد احساسى بطعم السعادة مرة اخرى ، ولكنه ظل واقفا كتمثال لرجل نوبى عجوز . فلم أملك الا ان اذهب معه .

وبطبيعة الحال ، حال المعيشة فى الصحراء ، نضطر الى الغاء الكثير من العادات التى كنا نقوم بها فى المدينة ، مثل الاستحمام اليومى وحلاقة الذقن واستعمال فرشاة الاسنان والتطلع الى المرآة لاعطاء ملابسنا لمسة هندسة لتبدو فى غاية الرقة والاناقة ، او استبدال ملابس باخرى وما الى ذلك ، فهذا هو (الشورت) ثم قميص نصف كم كالح اللون ونعل جلد مما يستعمله البدو يسهل الحركة والسير على الرمال . وكان ما يضايقنى حقا هو نظارتى الطبية فهى احيانا تفقد منى فى الرمال ، او يقوم احد الزملاء الخبثاء باخفائها لمجرد احراجى او للضغط على لأزيد له من كمية الطعام ، وهى دائما — تلك النظارة اللعينة — يعلق بها رمال صغيرة متطفلة تجعل الرؤية من خلالها

صعبة واحيانا مستحيلة ، والاكثر من هذا عندما ينتصف النهار وتعلو الشمس ويسيل العرق ، المملح الممزوج بالرمال على الوجه، تصبح النظارة الطبية — بالنسبة لى عذابا مؤلما يزيد اعصابى اشتعالا ، وتنزلق وارفعها لتنزلق مرة أخرى لأعيد الكرة مما يجعل وجهى يلتهب وعيناى تدمعان من الألم ، وحبات الرمال تنغرز على انفى وحول اذنى . ولكن ، هذه الملعونة لا يمكننى الاستغناء عنها ولا يمكننى الرؤية السهلة بدونها وهذا ما جعلنى اتحمل كل مضايقاتها .

واخذت امسح النظارة بالمنشفة مرة وبالقميص مرة اخرى حتى امكننى ، بعد جهد — وعبد الصمد ينظر الى — أن البسها واذهب معه لاعداد الفطور لافراد المعسكر .

اثناء الفطور ، كان الحديث يدور مرة حول احد الاتجاهات السياسية ثم يلتف حول طرق تحسين المعيشة وتحديد النسل ، ثم ينقطع فترة ليعود حول النساء وهو المجال الوحيد الذى يحظى بالاجماع ، فكلنا من الرجال الذين نزحوا عن المدينة منذ فترة طويلة الى حد ما ، وكلنا نشكو الحاجة اليهن ، وكما هى العادة ، جرى الحديث دون جدل او نقاش ، مجرد القاء كلمات او قفشات تثير الضحك لان لها اكثر من مغزى ، وفى اثناء الحديث نظر الى (بهجت) يسألنى :

— ماذا كنت تفعل امس ؟ كان معك احد الاشخاص .. والكلب !

ونظر الى جيدا وهو ينطق بكلمة (احد الأشخاص) وكأنه يقول : كانت سالمة وانا اعرف هذا ولكن ساحفظ سرك . وترددت فى الرد عليه ، فهو ضيق الأفق والصدر ، والحديث معه غير مضمون النتائج ، كما اننى لا اميل اليه كثيرا ، وهو يشعر بهذا

وكثيرا ما كان يحرجني بالأسئلة في الأجتماع الأسبوعي عن الطعام والأغطية وجهاز الراديو المعطل ، وانا دائما حريص على الرد ،بل أحيانا ما أشركه في حل بعض مشاكل المعسكر حتى يشعر بما أشعر ويرى الجهد الذي أبذله لكي أقدم له الطعام وكل ما يحتاج اليه ، بينما يجلس هو طول النهار بجوار بريمة الحفر حتى يحتاجوا اليه ونادرا ما يحدث ذلك ولست أدري ما فئدة كاتب حسابات في معسكر للبحث عن المياه الجوفية ؟

ــ انت أدرى مني بالأمر ..

وتركت الطعام ، واخذت اجول ببصري بين المجموعة ولاحظت انهم لم يتبينوا كلمات (بهجت) واحسست بأن المسألة خطرة وليست بسهولة الأحلام . فسالمة هي الفتاة الوحيدة الناضجة والتي تصلح للمعاشرة في المنطقة التي نعمل بها واسرتها التي لا تزيد عن عشرة افراد اما رجال كبار في السن او امها العجوز وأخوتها الصغار من بنات وصبيان ، وعلى هذا فوجودي معها في ساعة من الليل سواء اكانت هذه الساعة متأخرة او متقدمة من الليل يعني أشياء كثيرة وانا بالذات اعني للأسرة البدوية الكثير ، أولها انني املك طعام المعسكر واتحكم فيه واتصرف بحكم عملي في كمياته والأسرة تعيش متنقلة حولنا وتقيم بجوار معسكرنا دائما .

واحسست بالخوف ، يتخلل كياني فاشعر بالبرد ويذكرني بالماضي ، فقد طردت من عمل سابق بسبب امراة ، ونقلت من عمل الى آخر بسبب امراة ، وهذه المرة ستكون بسبب امراة أيضا وضاقت نفسي واضطربت اعصابي ، واخذت الهث واحساس بالفشل يعود مرة أخرى ليظهر في حياتي ويهدد مستقبلي ، وافكار مختلطة تروح وتجيء دون ترتيب ، وجود فتاة مع أحد أفراد البعثة يعني أشياء كثيرة ، منها تهديد برنامج الابحاث عن

المياه الجوفية بالتوقف ، فهذه الفتاة ابنة أسرة بدوية ، والأسرة تنتسب الى قبيلة متناثرة فوق رمال هذه الصحارى وتسيطر عليها وشرف الفتاة عندهم يساوى احيانا خمسة وعشرون جنيها واحيانا اخرى يساوى خمسا وعشرين رأسا من رءوس الأفندية، ولا ادرى اى الحلين سيكون ؟ وسواء الحل الأول او الأخير فالأمر سيجعل القبيلة تغير نظرتها الى وجود هؤلاء الأفندية فى اراضيها .

ذهب كل الرجال الى اعمالهم ، وبقيت وحدى جالسا تحت خيمة المطعم اقلب كوب الشاى الفارغ بين يدى وافكر فيما يجب ان افعله !

نعم ، (سالمة) جميلة ولذيذة واحتوائها بين الأحضان يساوى اكثر من خمسة وعشرين جنيها بل أكثر من مائة ، ولكن لست متاكدا من هذه النتيجة . فربما يحكمون بقطع الرءوس واسالة الدم !

وتذكرت حادثة رواها صديقى (ابراهيم) الذى كان يصاحب احدى البعثات الأميريكية التى تنقب فى الصحراء للبحث عن نوع من فصائل الحشرات ، ففى احدى المرات عسكروا بجوار احد النجوع وهناك التقى باحث منهم بفتاة بدوية واستطاع أن يغريها بطريقة ما ونال منها وذهبت الفتاة واعترفت لأبيها الذى ذهب بدوره يشكو الى شيخ القبيلة ، ودعى شيخ القبيلة الى اجتماع سريع واحضروا امامهم الباحث الذى ارتكب الحادث . وظل الرجل يرتعد من الخوف ومن حوله شيوخ القبيلة فى جلستهم يتدارسون الحادث فى غضب ، وافراد البعثة التى كانت مكونة من ثلاثة من الأمريكيين وصديقى المصرى فى حيرة من امرهم ، وحاولوا الاتصال بمقر قيادتهم ولكن لا فائدة ، بحثوا عن حل لينقذهم من هذا البلاء ، واخيرا وجدوا انه لا مفر من

قبول حكم مجلس القبيلة . ودارت مداولة شيوخ القبيلة ثم حكموا عليه بغرامة مالية قدرها خمسة وعشرين جنيها والطردمن المنطقة كلها وتحريمها عليهم .

ورغم أن هذه القصة سمعتها من زميل اشتهر بالصدق ، الا أننى لم أصدقها تصديقا كاملا وظلت تدور فى عقلى بين التصديق والتكذيب . واحيانا أفكر فى سهولة الاحتيال على امراة نظير هذه الجنيهات . ولكن ما كان يقصه (عبد الصمد) من انهم يقتلون عشرة رجال واحيانا اكثر ثمنا لشرف الفتاة البدويةجعلنى افكر فقط ، والآن انا متهم امام (بهجت) ، وهذا الرجل ثرثار بطبعه وسوف يذيع اتهامه ، واصبح بطلا لقصة غير حقيقية :

ـ ماذا افعل ؟

صحوت من تأملاتى على صوت (سالمة) تنادينى فى نبرة رقيقة أو أعتقدت انها كذلك ـ ونظرت اليها ، لو ان الامور تسير كما تسير الأحلام ! ، ونسيت خوفى وخطر على بالى ان اسألها ، ماذا كانت تفعل أمس عندما قابلتنى ؟ ولكن تحرجت ، ربما أجابتنى بطريقة جافة تجرح شعورى وربما كانت تفعل شيئا لا تود أن تقوله ، ولكن كيف رآنى بهجت ؟ وانتابنى شعور بالغيرة أو تكون سالمة على علاقة بالفعل مع أحدهم ؟ وقفز كلام بهجت امام عينى ، ربما يكون هو الذى له علاقة ، ولكن بهجت لا يصل الى هذه المرحلة ، سالمة تحتاج الى عاشق من نوع آخر ، وهى اما تحتاج الى ، فانا امثل الجانب المسالم ، واما تحتاج الى نوع آخر مثل طلعت بمنظره الوسيم وجسده المنسق ويمثل جانب الفروسية ويثير خيال فتاة تعشق الرجل القوى بطبيعة حياتها ، ولكن بهجت ، هذا القصير الدميم المتطفل لا يعجب سالمة ولا يثير خيالها .

وفى خلال حديثى معها ، وكنا نتحدث عن الـكلاب ، لاحظت انه لا يوجد احد على مقربة منا ، وخيمة المطعم خاليــة الا من الموائد الخشبية المفروزة فى الرمال وكأنها قبور ، وريح خفيف تبعث الدفء فى قلب الرمل الممزوج بالندى ، وفكرت ان اقبل سالمة ، فنحن وحدنا تقريبا وهذه فرصــة نادرة وربما لا تعوض فى المستقبل ، ولكنى تريثت بل وتظاهرت بعدم المبالاه واخـذت هى تقص احدى الحكايات ، وتذكرت أمى .

فى بلدتنا ، بعيدا عن هنــا ، بجوار النهر ، وفى حجرة من حجرات بيتنا وسط كتل البيوت السوداء المتراصة فى تكاسل ، والقمر يرسل شعاعه الواهن فيصطدم بأسقف السطوح وينكسر ويقفز الى الحوارى راسما مربعات من الظلام واخرى من مربعات النور الباهت يخترقها ظلال اعواد الحطب المدلاة من اســطح المنازل ، وعلى فراشى وبجوارى جلست امى تقص (الحـدوته) تقول كلمة ثم يداعبها النوم ولكنى اسرع وانبها حتى تكمل القصة او الحدوتة حتى اذا فرغت منها طالبتها بالمزيد ، واظل هكذا أزود النوم عنها حتى تقص على اكثر من حدوتة ويغلبنى النوم .

واختلطت فى ذهنى الصــور ، صــورة امى وهى تروى لى الحواديت ، وصورة سالمة وهى تروى لى احدى الحكايات ، أمى سمراء وسالمة كذلك ، امى نموذج صغير دقيق لامراة اسبانية ، وسالمة تبدو حفيدة رقيقة ضئيلة لاحدى النساء الأســبانيات ، وكلاهما تتحشم بالملابس السوداء ، وكلاهما ايضا يتحدث برقة .

وسالمة تكمل الحكاية ، وتسألنى بعض الأسئلة لتشــوقنى حتى اسمع نهاية القصة وانا لا اجيب – فقط ابتسم – ابتسم لسالمة ، وابتسم لأمى .

لا يا امى لا تظنى اننى نسيتكم تماما ، انا فقط اخاف منــكم وعليكم ، ما اشد الآلام التى سببتها لكم ، كم تحملتم فى سبيلى

وأنا الآن ، بعد كل هذا لا استطيع ان أقدم لكم شيئا حتى الامل ، لا استطيع ان اقدمه مجرد سراب امل . سامحينى يا امى .

كانت سالمة قد فرغت من القصة ، وددت ان اقص عليها احدى الحكايات او الحواديت فالحواديت فى القرى كثيرة وانا مازلت احفظ منها حصيلة لا بأس بها . وللحواديت الريفية طعم جميل يختلف عن اقاصيص البدو ، ولكن تلك الرغبة لم تتحقق ، ولمحت (طلعت) بقميصه المفتوح دائما من الأمام يقترب منا ضاحكا ، كنت اود ان اقص على سالمة قصة الجنيه وعم مفاورى وكيف ركب عم مفاورى الجنية واستخدمها فى الزراعة حتى اصبح من اثرياء المزارعين فى قريتنا وذهب الى الحجاز وعاد ليحمل لقب الحاج مفاورى بدلا من عم مفاورى . ولكن طلعت ، حضر وراح يداعب سالمة بجراة وهى ترد عليه بصوت خشن – وكلما ردته سالمة زاد هو من قفشاته حتى اننى احسست بأن الموقف ليس معى ، وان طلعت بجراته يعجب سالمة اكثر ويتلائم مع طبيعتها ، اما انا فليس لى معها نصيب .

وعندما وصلت الى هذا القرار ، انسحبت مدعيا باننى ذاهب لأرى شيئا هاما ثم أعود .

لو كانت الحياة فى جمال الأحلام وسهولتها ؟ !!

- ٤ -

في امسية ذلك اليوم وقفت في صباحه مع سالمة تحت خيمة المطعم في المعسكر ثم مجيء طلعت وما احدثه في نفسي هذا المجيء ، كنت حزينا ، محسور الفؤاد ، اشعر بخيبة امل وبضآلة لا حد لها ، وباحساس بالمرض والتفاهة ، وخوفي من طلعت ان يسلبني سالمة وجلست بجوار الحفارة على كومة قش الأرزالذي نستعمله في تسيير الماكينات على الرمال . افكر في كل ما حدث، وكان ما يشغلني هو الاحساس بأنني ربما اكون قد سقطت في الحب ، فاذا كان هذا صحيحا وليس مجرد تخيلات تدفعها الحاجة الى الجنس الآخر . لأصبح الأمر شيئا مؤلما ويستحق المراجعة والبحث عن حل سريع ينقذني . ولكن يبدو ان الأمرغير هذا ، حقيقة ان سالمة رقيقة وجميلة ولكنها ليست المهبط المناسب للتمتع بالحب وطلعت ، ما الذي يجعلني اشعر بالخوف منه ومن منافسته ، ولجأت الى خيالي ابحث فيه عن مأوى لخوفي ، ويحملني الى مجال أفسح وأرحب . وهناك في بحر الخيال الواسع المدرب من الصغر احقق ذاتي واحلامها .

وفكرت في حدوتة عم مغاوري والجنية ، ورحت اتعقب في ذاكرتي الخيط الذي يوصلني الى استكمال نهايتها . ورغم مرور عشرين سنة على سماعي لهذه القصة لم تذهب تفاصيلها مع ما ذهب من ذكريات الطفولة واحداثها .

نعم ، مازلت اذكر بقية الحكاية . فقد نظر عم مغاورى الى الجنية وهى متنكرة على هيئة حمار مسرج ثم عرف حقيقة امرها، وتذكر أنها تفرى من يراها حتى اذا هم بالاقتراب منهـــا هربت منه ليسرع مرة أخرى خلفها يطاردها وهى تبعد تارة وتقتـــرب أخرى ، حتى اذا تمكنت منه ترديه فى غياهب جب الساقية أو فى أعماق النهر ، وادار عم مغاورى المسبحة فى يده وراح يسبح ربه ويسأله البصيرة ، ويستعيذ به من شر خلقه ومن جنيـــات البحور ، والجنية تتظاهر برعى العشب النـابت على الجسر فى محاولة لزيادة التنكر والتمويه ، واتاه الهام بأن يسرع الى ظهرها ويغرز فيه (مسلة) فاذا تمكن من ذلك اصبحت الجنية ملكا له يفعل بها ما يشاء وفى صورتها الموجودة عليها ، ولحسن الحـظ وجد بجواره (مسلة) كان يخيط بها بعض (المقاطف) فاستجمع شجاعته وردد من القرآن ما تيسر له وهب واقفـــا ، ولم تكن الجنية على علم بما يضـــمر لها ذلك الرجل الريفى فلم تسرع بالهرب ، بل تمادت واقتربت منه لتغريه بركوبها ، فتمـــكن عم مغاورى منها وغرز (المسلة) بكاملها فى ظهرها حتى صـــاحت متوجعة من الألم وبكت وتوسلت اليه ودموعها تسيل بغزارة ملأت بئر الساقية ولكن قلب عم مغاورى لم يلن لها ونهرها قائلا :

— ستظل (ا.) فى ظهرك حتى تمكنينى من تعلية الجسر ، وتسلم الأرض من نرق وكذلك تساعديننى فى أعمال الحقل .

ولما كانت للجنيات القدرة على التحدث بكل الألسنة فقـــد صاحت متوسلة الى عم مغاورى :

— ارجوك ، ارحم أطفالى الصغار ، لقد تركتهم فى قاع النهر وهم ينتظرون عودتى .

— لا ، ليس لك قلب رحيم ، وأنت لا تظهرين للناس الا رغبة

منك في هلاكهم وسرقة اطفالهم ، ولن اخلصك من (المسلة) الا بعد ان تقضى لى حاجتى .

وسحبها من اذنيها ، غير عابىء بدموعها وتوسلاتها ، واحضر لها لجاما من سلاسل الحديد ثم ارغمها على ان تقضى طوال الليل فى تعلية الجسر بالأتربة وتمكنت الجنية بالفعل من تقوية الجسر وتعليته واصبح قادرا على حماية ارضه وارض الجزيرة كلها من الغرق بمياه الفيضان وكان هذا الأمر قد أخذ منها حتى الفجر ، وحينئذ تقدمت الجنية من عم مغاورى ، واعطته خصلة من شعرها ورجته ان يخلصها من (المسلة) لتذهب وترى صغارها طوال النهار فاذا جاء المساء عادت اليه ثانية واقسمت له ان فعل فيها هذا الجميل لظلت طوال حياته خادمته الأمينة المخلصة ، تدير له الساقية ، وتحرث الأرض ، وتسمد الزرع ، وتحمل المحصول الى البيت ولفعلت بمقدار ما يفعله مائة رجل من اقوى الرجال ، وأوضحت له أن خصلة الشعر هى الضمان لصدقها وانهت كلامها بقولها :

ــ وان اخلفت وعدي تستطيع أن تلقى بخصلة الشعر هذه الى النار لتحترق واحترق انا معها ، واتلاشي من الوجود ، وتنزل اللعنة بأولادى من بعدى .

واحس عم مغاورى بصدق حديثها ، وقال فى نفسه ، انها قامت بعمل كان يتطلب اياما واياما لانجازه ، وما كنت اقوم به وحدى لولا معونة هذه الجنية .

وقرر ان يتركها حتى ترى اطفالها ، فهو ايضا له اطفال ، ويشعر بما يشعر به الآباء نحو أبنائهم .

وحمدت الجنية له هذا الصنيع وبرت بوعدها له ، شاكرة له معروفه ، مظهرة امتنانها بجميله ، فقد كان يمكنه أن يسخرها

حمارا طوال عمرها ، ويحرمها من الحرية ومن رعاية اطفالهـــا الجنيات الصغيرات ، ومن التمتع بحياتها الطليقة في اعمـــاق النهر ، واصبح عم مفاوري ينتظر الجنيـــة في المســـاء لتقوم له بالعمل على خير وجه وبسرعة .

ودارت الأيام وعم مفاوري تيسرت حاله وكثر زرعه ،وامتدت حقوله وانبتت العجيب من الزرع وارسل اولاده الى المـــدارس ، وذهب هو الى الحجاز عدة مرات ، وظل طوال حياته ميســـورا في ماله متدينا شاكرا لربه ، بارا بالجنية عطوفا عليهـــا حتى أعطاها خصلة الشعر ليطمئنها ولكنها ظلت على وعدها معه .

وهكذا انتهت الحدوتة الغريبة التي قصها علينا (محمـــد الصياد) ونحن جلوس على مصطبة ضريح (سيدى يوسف)،والتى ظلت عالقة في ذهني طوال الأعوام السابقة التي مضت ، وذهب معها الكثير من أحداث الطفولة ونسيتها الذاكرة ، ولكن حدوتة عم مفاوري قاومت عوامل النسيان حتى اســـترجعتها في هذه الأمسية .

وأثار تذكري (للحدوته) اكثر من سؤال : هل يمكن ان اقابل جنية في يوم من الأيام وتفعل لي مثل ما فعلته لعم مفاوري ؟وهل تستطيع الجنية أن تجعل ســـالمة تحبني ؟ . او انني اكتفي بأن تساعدني الجنية في عملي فقط ؟ ولكن كيف تساعدني الجنية في عملي، وهو لا يعدو أن يكون عملا بسيطا حتى ان مشاكله رغم كثرتها تافهة ؟ ولصالح من تساعدني الجنية في العمل ؟ هل ستعطيني المؤسسة اجرا مضاعفا ؟ هل ستدفع بي الى منصب اعلا ؟ لا اعتقد أن المؤسسة ستفعل شيئا من ذلك ، ولكن يجب ان اطلب الى الجنية ان تساعدني في امور أكثر جدوى ، أســـتطيع ان اكون بواسطتها مهندسا كبيرا ، لا ليس هذا بل الافضـــل ، خبيرا في المياه الجوفية ، فتساعدني الجنية في أن اعرف أي المناطق

تخفى تحتها المياه ، فنحفر فيها الآبار، وهكذا دون عمليات البحث الطويلة المرهقة الباهظة التكاليف ، هنا خزان للمياه بعمق ثلاثة آلاف متر ، احفروا هنا ثم هنا فاذا أمكن ذلك زرعنا هذه الصحارى ، وجلبنا العديد من الماكينات لتخرج الماء المخزون فى باطن الأرض ونروى به تلك المساحات الشاسعة من الرمال الصفراء الملعونة المكررة ، ولأمكن ان نعيد الى الصحراء مجدها الرومانى القديم وزرعنا القمح والقطن والفل والياسمين ، وكثر الخير ، وراجت الحياة ، وتغيرت معالمها فى الصحراء ، ثم تسكن سالمة منزلا أنيقا يليق بجمالها ، وادعوها ـ بعد ان حققت ذاتى وصنعت لبلدى شيئا هاما :

ـ مرحبا بك يا سالمة ، فالقلب فى شوق لرؤياك .

ـ لقد اصبحت نجما عاليا فى السماء ، وانا فتاة فقيرة بائسة مثل حبة رمل ملقاة فى قاع قناة صخرية .

ـ لا يا سالمة ، ليس مكانك قاع قناة ، أنت هنا فى القلب والروح .. انت فى العين والفؤاد .. وكل ما فعلت هو من اجلك .

ـ من اجلى أنا ؟ يالى من محظوظة ، يالى من سعيدة ، ولكن هل تحبنى الى هذه الدرجة ؟ اخاف ان يكون الأمر عطفا ؟

ـ انظرى الى عينى ، ماذا ترين ؟ انه الحب الأبدى ، ضعى يدك على قلبى ، هل تسمعين خفقاته وهى تردد اسمك ، ان قلبى يسبح باسمك فى كل لحظة ، ينادى بحبك ، يا حبيبتى السمراء والفاتنة .

ـ لا ، لا تقترب منى ، اننى أسمع وقع أقدام ، ان هناك من يرانا .. ارجوك ...

ـ لا تخشى شيئا يا حبيبتى .. أنا هنا أحميك من كل شىء .

لا . أرجوك . أتوسل اليك . أن هناك شخصا يرانا .

ـ أنا رئيس هذا المكان ، وانا الذى صنعته .. من هـــــذا الذى يجرؤ على أخذك منى .

ـ انه ...

ـ من ؟

ـ طلعت .

ـ ما الذى جاء بك الى هنا ؟

ـ قم وزع الأكل .

ـ الأكل ، لقد نسيت . آسف يا طلعت لقد غفوت قليلا .

كان الخيال قد شطح بى بعيدا ونسيت ان آمر عبد الصمد باحضار طعام العشاء ، ولم أفق الا وطلعت يجـذبنى من يدى ، ورحت اهز راسى لكى ابعد عنها آثار الخيال ولأعيـــدها الى الواقع ، ووقفت انفض عن ملابسى ما تعلق بها من القش ،وطلعت يسألنى عما بى .

ولم احاول أن اجارى طلعت فى حديثه واكلف نفسى عنـــاء الرد على أسئلته ، والجبن جاهز وعبد الصمد يفتح العـــــلب المحفوظة ، وتعليقات متقاطعة غير مترابطة من العمـــال ، وافراد المعسكر والـكلب ينبح فى ضـــعف ، وبهجت يعبث فى أزرار الراديو ، وحسين يضع الطعام أمام كل فرد ولا أحد ينظـر الى الطعام

الجبن يبدو كأن لا طعم له ، به ثقوب مفتـــوحة مثل أفواه أصنام رديئة الصنع ، واللحم المحفوظ تفوح منه رائحـــة الملل والنفور كتل صغيرة حمراء متماسكة فى حزن ، ومائدة طويلة واطباق نحيلة تحوى زيتونا أسود ، وفى خيال كل منـــا تدور حوادث عالم آخر ، عالم يتفرد به كل منا ويعيش فيه ليصنع منه حياته الخاصة التى لا يعرفها أحد ولا يراها أحد سوى الفـــرد ذاته .

مضت عدة ايام ، طويلة مملة ، غابت سحـالة ولم تحضر الى معسكرنا ، تجهم طلعت واكثر من التدخين ،عشت فى ظلال من احلام مبهمة تحيط بعقلى مثل غمام اسود يحجب الرؤية ولكن تغير الامر بعد وصول عربة البريد والتموين ، حملت رسائل المركز الرئيسى البشرى الى طلعت ، تحقق وجود الماء بوفرة فى المنطقة التى نبحث فيها ، ثم توالت بعد ذلك الامور فى سرعة ، بدات ادارة الشركة تهتم اكثر بالمعسكر وارسلت الينا كميات جديدة من الخيام والمهمات والطعام ، وانشغلنا جميعا بفرحة النصر ، نرتب ونعد وطلعت يدور حول المعسكر فى كبرياء العلماء وقلت مداعباته للعمال ، وتظاهر بالجدية .

وفى خلال هذه الدوامة من العمل نسيت نفسى قليلا ، نسيت احلامى ، تلاشت صورة الجنية او على الاقل توارت عن ذهنى . واحسست بالقدرة على فعل اشياء تستحق الاعجاب بدون الحاجة الى جنيات . نجح معسكرنا فى اكتشاف الماء بهذه الكميات الهائلة ، وانعكس هذا النجاح على نفسيتى الى حد كبير ، فالتغيير الذى سيحدثه كشفنا فى المنطقة والذى سيحيلها الى ارض خضراء يرجع الفضل فيه الى تلك الايام والليالى التى قضيناها هنا فى الصحراء ، ولاشك إننا سنشعر بالفخر على الاقل .

وبدا المعسكر يعد العدة للانتقال الى منطقة اخرى اكثر تعمقا فى الصحراء ، ونخلى هذه المنطقة لمعسكر آخر يقيم روافع المياه

والمضخات ثم يجرى ابحاث زراعة المنطقة ، وهـذا ما يحدث فى كل منطقة وجدنا بها مخزونا للمياه الجوفية . وحينما فكرت فى الرحيل قفزت صورة سالمة فى مخيلتى سنرحل ونتركها ؟ ام انها سترحل معنا ؟ ولـكن ما سر هذا الاهتمام وقد سبق لنا التنقل من منطقـة الى اخرى ولم يسـبق لى الاهتمام بسـالمة او اسرة سالمة ؟ ، وهم لا يعدون اكثر من اسرة بدوية ترحل خالفنا وتتعيش من حولنا ؟ . ولكن اليوم وهذه المرة ، السؤال يلح على عقلى : هل سيرحلون ام يبقون بجوار الآخرين ؟

وحركة الرحيل فى المعسـكر تدور بسرعة ، والعينات التى نرسلها يوميا الآن تؤكد نجاحنا وطلعت يزداد شـعورا بالمسئولية والاهمية ويزداد كذلك بعدا عنا وعن مجلسـنا ، ولما كنت اعزه واحبه رغم خيالاته عنه بالنسبة لسالمة ، الا اننى كنت دائم الحب والاعزاز له وازداد فرحى حينما وصله خطاب ادارة الشركة تخبره فيه بأن نتيجة ابحاثه قد حولت الى الجامعة للاستفادة منها ، وذهبت اليه اهنئه بهذا النصر العلمى ، وراعنى سرعة تحوله ، فقد اصبح مهذبا لا يميل الى المشاكسة المعتـادة منه ولا الى القفشـات التى كان يلقيها طوال النهـار حتى اننى نسيت ما كنت أود التحـدث فيه معه .

واحسست ان طلعت يبعد عنى وخطا خطوة الى الامام ، بينما انا جالس فى مكانى احلم احلام الصبية وصغار العقول ، واحلم ايضا بسالمة ، الفتاة البدوية التى لا يربطنى بها رابط سوى حب جائع فى الصحراء ، طلعت عاش فى واقعه والتمس طريقا مشمسا وسار فيه . حقا ان ابحاثه جديرة بالاهتمام . فقـد عانينـا فى البحث عناء كبيرا ، كانت المواسير التى نرسلها فى الارض بواسطة الحفارة ، عبر طبقات مختلفة من الارض ، لا تصل ابدا ، وان دل البحث على وجود مياه بوفرة لا تقدر على رفعها ، كانت المواسير

تتآكل بفعل ما فى جوف الأرض من أملاح أو معادن أو ربما بفعل
طبيعة المياه نفسها ، واستطاع هـذا الولد الشـقى ، الحـديث
التخرج ان يوفق الى حل للمشكلة وصـنع نوعا من المواسـير لم
تتأثر واعطتنا الماء والنجاح ، طلعت انتصر وانا اخلق حولى سرابا ،
اصنع حول عقلى غلالة من الضباب وانسج حول خيمتى مجموعة
من الأكاذيب سرعان ما أصدقها واسقط فى شراكها ، ويبتعد عنى
الركب ويتركنى الزمن معلقا بين السماء والأرض بشبكة أكاذيب
واهيـة سرعان ما تأتى رياح الصـحراء المحملة بالأتربة والرمال
وتطوينى فى اعماقها واظل الى الأبد سجين هذه الشبكة الملعونة .
وراعنى هذا التصور وتخيلت حياتى فارغة الا من مجموعة أكاذيب
وخيالات واحلام وقصص وهمية من الحب والعظمة والسلطان كلها
مجرد اوهام انسجها فى تلذذ وراحة ، وحينما تهب عليها رياح
النهار تختفى تاركة حسرة فى القلب وصداع فى الرأس ، والحب .
عديد من اقاصيص الحب تعيش معى ، أحببت كثيرا من الفتيات
إحيـانا سـمراء واحيانا بيضاء ، مختلفات المشارب والأمزجة
متدرجات من ابنة سلطان المغول الى ابنة شحات جوعان ، ومختلفات
الجنسـية ، هذه من الصين والأخرى من السـويد ، ثم من أعماق
افريقيا او شمال الأرض وعمرهن أيضا مختلف ، فهذه فى العشرين
والأخرى فى الأربعين أو بين ذلك ، ولكن كل هـذا مجرد أوهام ،
أحلام ، خيالات لا تعدو ان تكون مجرد نسيج واه حينما ارتكز
عليه تهوى بى . ولم تخرج تجـاربى العـاطفية فى الواقع منـذ
صغرى عن فتاة فى السابعة عشر فقيرة ، احببتها كل الحب أو
ما تصورت انه كل الحب ، وكتبت فى حبهـا الشـعر والزجـل
والأغانى والخطابات . ولم تسلم هذه الواقعة من اضافة لمسـات
من خيالى ، فالفت لأحد أصدقائى العديد من أقاصيص مقابلتنـا
وإحاديثنا ، واضفت اليها الـكثير من الأمور التى ليست فيهـا .

وتخيلتها ابنة رجل عصرى يستقبلنى ويعانقنى ويجالسنى ، وهى حلوة جميلة تأتى وتجلس بجوارى وتحنو على ، وتداعب شعرى ، وتميل على اذنى وتغرقنى فى بحر من جمال اللفظ وهى تحكى لى حبها وشوقها وهيامها ، واحكى انا لصديقى كل هـذا وازيد فى الوصف كيف قابلتها وكيف عانقتها ، وكم هى رشـيقة ومتعلمة تجيـد الفرنسـية والانجليزية ولغة اخرى لا اعرف اسـمها ، وصديقى يلهث وراء قصتى ، ويسأل المزيد وانا اقص عليه اكثر مما يسأل . بينما هذه الفتاة التى البسها كل هذه الزخارف لا تزيد عن كونها ابنة طباخ (الخواجة) لا تعرف سوى كلمات ريفية ساذجة تجلس على الأرض أمام باب منزلهم المتهدم طوال النهـار لا عمل لها سوى رؤية الرائح والغادى من اهل حارتنا والنقنقة مع جاراتها وهش الاوز ،ولم تحادثنى فى الحب والهوى ، ولم تداعب راسى بل ولم تلمس شعرة منى .

الأكثر من ذلك أن هذه الفتاة التى احببتها ، كانت تجـالس شبانا من أسرتها أو من خارج اسرتها تضاحكهم ، وانا اتصـورها ملاكا رحيما واغرق فى تصورى واخلع عليها كل ما فى خيـالى من صور الجمال ، والرحمة والحب والعظمة ، وهى مجرد فتـاة يائسـة ابنة طبـاخ فقير دائم التبـاهى بشرف أمه التى رفضت الانصات الى اغراء سيدها ، بينما زوجته وبناته يفعلن ما شاء لهم من مجالسة شبان القرية الى امور أخرى لا أعرفها .

هذه الفتاة التى هى اول من احببت والتى وصفتها لصديقى بكل ما سبق لم تكن تعرف عن حبى شيئا ولم تتصوره ولم تتخيله مطلقا ولم تعرف به الا قبل زفافهـا بأيام قليلة . وكنت ، نتيجة حبها المتيم من طرف واحد ، فريسة سـهلة لدجال فى قريتنـا يدعى معرفة الغيب والقدرة على تسخير الجان والبراعة فى كتابة الأحجبة للحب والعشق والبغض . والناس فى قريتنـا يهرعون

اليه اذا حل باحدهم كارثة او فقد شيئا عزيزا عليه ، كما يسرع اليه شباب القرية يسألونه المشورة فى العشق واضعين فى يده كل ما يملكون من نقود او اقداح من القمح او اكياس من القطن لكى يكتب لهم شيئا يجعل الحبيبة تركع تحت الأقدام ناسية أهلها وكرامتها .

حدث مرة ان تناسيت خيالاتى وبحت بقصتى لصديق كان يذهب معى الى المدرسة ويشاركنى فى جولتى عبر الحقول فى آخر النهار لنستذكر دروسنا ، وكان يصغرنى فى السن ، ولما قصصت عليه الامر ، نصحنى بالذهاب الى سيدنا الشيخ ، ووعد أن يقوم بدور الوسيط لانه يسكن بجواره ويعرفه معرفة شخصية ، واكد لى ونحن نتاهب للعودة الى منازلنا ان هذا الشيخ له قدرة على ان يجعلها تأتى الى فى منتصف الليل ، بل انه يجعلها ـ اذا اردنا ـ ان تجافى النوم فى ليلها من الحب وقسوة الشوق . وهو ايضا قادر على ان يفعل اكثر من ذلك .

وداعبت كل هذه التأكيدات ـ التى يقدمها صديقى كمال ـ خيالى ولمست وترا حساسا فى قلبى ولكن فى تردد ، وعندما ادرك هو ذلك .. اخذ يقص على العديد من القصص التى تحكى قدرة الشيخ على ان يجعل المحبوبة تذهب الى معشوقها فى ثياب النوم متأثرة بفعل الجن .

وبدا الامر لى بأنه قريب الى المعقول ، وطافت بذاكرتى قصة الجنية التى كانت لعم مغاورى ، ورايت نفسى جالسا فى حجرتى التى تطل على الشارع وامامى بعض الكتب الدراسية واذا بالباب يفتح وتدخل (كوثر) فى ملابس النوم ثم تركع عند قدمى طالبة الرحمة والعفو ضارعة ان ابادلها الحب ، ولكنى أترفع عنها واصدها فما يزيدها ذلك الا تمسكا بى حتى اتنازل فى النهاية واقبلها ، ولكزنى كمال بيده فى جنبى متسائلا :

– موافق .

– موافق .

وصحوت من احلامى ، ونظرت الى صديقى مؤكدا موافقتى ثم انصرفت .

وكان علينا ان ننتظر حتى يأذن لنا الشيخ بمقابلته ، وانا فى سعادة غامرة مترقب متلهف ، أمنى النفس بالقرب من حبيبتى . واخيرا بعد عدة ايام قضيتها فى قلق وافق الشيخ على حضورى الى منزله حيث كان يدير عمله .

كان موعدى بعد صلاة العشاء ، دلفت الى الحارة المظلمة خائفا متهيبا يجذبنى صديقى من يد واتحسس بالاخرى جنيها فى جيبى أحضرته لاعطيه لسيدنا الشيخ حسب تعليمات صديقى كمال ، حتى وصلنا الى الدار .

صوت الباب يدوى فى الظلام الصامت ، ليفتح على نور ضئيل لم اتبين منه وجوه الجالسين على (فرن القاعة) الذين بدوا ككومة واحدة ، ووهج حجرات متقدة تصعد من موقد فخارى وابخرة صاعدة ، وجذبنى صديقى فاجلسنى على حافة (الفرن) وتلفت حولى لأرى الجالسين فوجدت انهم مجموعة من الرجال والنساء لم أعرفهم ولم يسبق لى رؤيتهم من قبل ، ورحت اتفرس على ضوء اللمبة ضئيلة النور ، فى وجوههم حتى استدل على وجه الشيخ ، كانوا صامتين لا يتحركون وكأنهم مجموعة من التماثيل الشمعية . فهمست الى زميلى :

– اخبر سيدنا الشيخ بحضورنا ..

ولكنه اشار على بالصمت ، ثم همس فى اذنى يخبرنى بأن سيدنا الشيخ فى الحجرة الاخرى فى جلسة مع الارواح ولا يجب احداث اى صوت وإلا حدث له ضرر جسيم .

اخافتني لهجته الحادة الواضـحة وما لاحظته على الآخرين فلذت بالصمت . واخذت اتسلى بالنظر حولى ، وكانت عيناى قد اعتادتا هذا الضوء القليل . فراحت ملامح الحجرة تتضح شيئا فشيئا . وتبين لى ان ما يقرب من ثلاثين رجل وسيدة يجلسون القرفصاء فوق (الفرن) حول الموقد الفخارى ، وهناك آخرون ، ما يقرب من ثلاثة جلسوا على أرض الحجرة وفى يد كل منهم عصا غليظة ، وبجوارهم مجموعة هـائلة من الأحذية ، جرداء اللون كالحة تميل الى لون التراب بعضها برقبة طويلة تبدو كأشـباح ضئيلة الحجم ، وبعضها بدون رقبة بل هى أقرب الى النعـل منها الى حذاء كامل ، واغلب الظن انها احذية هؤلاء المتربعين فوق الفرن. ثم يقف وسـط الأحـذية ابريق نحـاس طويل ورفيـع وقلة من الفخار ، وفى الركن (طشت) من النحاس ولا شئ غير ذلك فى الحجرة سوى السواد يكلل جدرانها ويغطى نصف الزجاجة فوق لمبة الغاز .

واحسست اننى أعيش فى اسـطورة ، او ربما انتقلت الى زمن بعيد وشعرت بالنشوة لوجودى فى هذا الجو الأسطورى ولكن ما لبث ان انتابنى حزن عميق وبعض خوف وصداع يثقل على راسى ، وشعرت ان الأبخرة التى تتصـاعد من الجمر تكتم انفاسى ، وان الظلام له سمك وحجم وسوف ينقض على ويخنقنى، وراحت عيناى تبحثان عن طريق للخلاص . ولكن انشـق الظلام عن رجل قصير يرتدى جلبابا اسـود ويضـع على راسـه عمامة خضراء وله لحيـة طويلة سـوداء ، ويتمتم ببعض الـكلمات غير مفهومة . وما ان رآه الجالسون حتى هبوا واقفين وعيونهم تسال وهو يواصل خطواته غير عابىء بوقوفهم ولا بنظراتهم حتى وصل الى الفرن وارتقى الدرج فى بطء ثم جلس وسط المجموعة التى افسحت له مكانا بينهم وراح يقرب يديه من الجمرات ثم يفركها

ويمسح وجهه ، وكرر ذلك عدة مرات وهو يتمتم ثم رفع نظره ويديه إلى سقف الحجرة واخذ يتلو شيئا رافعا صوته مرة خافضا اياه مرة أخرى وبعد أن ختم تلاوته أمر النـــاس بالجلوس ، واحسست برهبة من هذا الرجل الأسمر النحيل ونظرات عينيه التى تبرق فى الظلام وتتحرك بسرعة فى كل اتجـــاه وشـــعرت بالخوف يتسلل الى قلبى ، ولكن شيئا ما فى داخلى جعلنى اهدأ قليلا وانظر اليه على انه رجل طيب ولم يطل الصمت حتى همس الشيخ ببعض الكلمات ، لم اسمعها جيدا ، للرجل الذى كان يجلس بجواره ، وسرعان ما سلم على الشيخ وقبل يده وهب واقفا فى الحـال ثم قفز من فوق الفرن وكذلك فعـل الآخرون ، ولم تمر لحظات حتى غادروا الحجرة ولم يبق فيهـا ســوى زميلى وانا وسيدنا الشيخ .

- ٦ -

وفجأة حضرت سالمة .

عندما تتلاشى الظلال فى الصحراء ، وتقف الشـــمس فى منتصف السماء مرسلة اشعتها الساخنة فى خطوط مستقيمة ، ويقف الهواء يستمتع بحمام الشمس ساكنا ، يصبح الجو داخل الخيام فى معسكرنا لا يطاق ، وتصبح هذه الساعات كأنها من ساعات جهنم ، والويل لنا فى الصحراء من تعـــامد الشمس وسط النهار .

كانت الأمور فى معسكرنا قد بدت مكررة واصبحت مملة ، فالنجاح الذى حققناه فى الأسبوع الماضى اصبح مجرد خبرقديمُ، نشرته احدى الصحف ذات يوم في زاوية ضـــيقة تحت باب الأخبار المحلية ، كما أن ادارة الشركة كفت عن الصياح فجأة . وبالطبع وقفنا نحن لا نملك الا البقاء فى انتظار عربة البريد حاملة الينا أوامر جديدة هل نرحل الى منطقة اخرى أم نعود الى المركز الرئيسى او نظل هنا حتى تحضر قافلة المعسكر الآخر ؟ من هــذه البلبلة اصبحت الأمور مجردة من اللون والطعم ، استاذيةطلعت غدت ممسوخة ، النوادر والحكايات والأحاديث تآكلت حروفها من كثرة ترديدها ، وأفكارنا وقفت عاطلة فى إنتظار أمر التحرك حتى الذكريات التى كانت الزاد الروحى لنا فى هذه المنطقـــة الموحشة تبلدت فى عقولنا .

وكان حضور سالمة ، بعد المدة التى انقطعت فيها عن المعسكر . خبرا مثيرا هاما ايقظ الحديث على الالسنة التى جفت من كثرة الصمت . وتقدمت سالمة الى وسط المعسكر وهى تنادى على عبد الصمد الطباخ . وكنت انا مسترخيا فى كسل تحت خيمة المطعم احاول تذكر قصة حبى مع اول فتاة تعلقت بها . ولمحتها وتوقف الشريط الدائر فى عقلى لأندفع نحوها دون روية ولا تفكير .

ـ سالمة ، إين كنت طوال هذه الفترة ؟

نظرت الى بدلال ثم جذبت الطرحة السوداء التى تنسدل على كتفيها وادارت فمها المبتسم ولم تجب ، وسرى خدر لذيذ فى جسدى واحسست بنشوة طاغية تغمرنى وكررت سؤالى مرة اخرى فى حرارة ، ولكنها استدارت تنادى على عبد الصمد . الذى برزت راسه من خيمته وصاح :

ـ والله زمان يا سالمة .

وكأن عبد الصمد يلمح بكلمته هذه الى شيء ما ، ربما يرمز الى وجودى بجوارها ولاحظ دلالها وفسره على نحو ما ! . فتراجعت ثم استدرت قافلا الى مكانى الأول والغيظ يكاد يفتك بى ،والغضب من عبد الصمد يعصف بى ـ فهو لن يسكت وسيظل يروى هذا المشهد عشرات المرات .وفى كل مرة يزيد عليها شيئا ، ولا اكاد اتخيل ما سوف تصبح عليه الأمور بعد ذلك ، فالويل لى من السنة الآخرين ، فهى تبحث عن شيء تقوله فما ان تتلقف .. رواية عبد الصمد حتى تلوكها فى تلذذ ، وكل لسان يضيف اليها جديدا من عنده .

ورحت ارقب سالمة وهى تتحدث مع عبد الصمد ، تشير له وتضحك ثم تنظر ناحيتى ، ولا اتبين من حديثهما شيئا ، حتى

ذهبت سالمة دون أن تمر ناحيتى ، اما عبد الصمد فواصل سيره حتى لحق بى وارتمى على الرمال تحت الخيمة وتنهد ، وبعد قليل رفع صوته ليغنى اغانى الصعايدة عن العشق والغرام .. ورغم أن صوته خشن وليس فيه اى لمحة تطريب او جمال ، الا انه تسلل الى قلبى ، وراحت ذكريات الحب تسترسل فى ذهنى مرة اخرى ، وعبد الصمد يحكى فى موال عن عذابه بحب المعشوقة وحيرته معها حتى أن الحجاب الذى كتبه لها لم يأت بنتيجة .. ويفسر ذلك بأن أحد حساده قد كتب له حجابا بالكره وربطه فى ذيل سمكة ، ومادامت السمكة تسبح فى الماء فكل حركة من ذيلها تقلب لواعج الحب فى قلبه واضغاث الكره فى قلب المحبوبة ، ولا يمكن فك السحر الا باصطياد هذه السمكة وذبحها وحرق هذا الحجاب ، واستدعى عبد الصمد جميع الصيادين واعطاهم كل ما يملك ليصطادوا له هذه السمكة ، ولكنهم فشلوا جميعا فى العثور عليها ونضب البحر من السمك الا هذه السمكة التى ظلت تسبح فى الماء .

وغمرنى موال عبد الصمد بفيض من الذكريات ، ورجعت بى الذاكرة الى حكايتى مع الشيخ الذى ذهبت اليه انا وزميلى كمال ، وتذكرت البقية ، فبعد أن ذهب الجميع من دار الشيخ ولم يبق الا نحن الاثنين ، تبسم الشيخ فى وجهى محاولا ازالة الرهبة فى المقابلة الأولى ، ولكنى دفعت بالورقة المالية ذات المائة قرش فى يده وقلت له فى ارتباك :

ــ اريد أن تصنع لى حجابا .

واعتقد أن كمال كان قد افهمه الموضوع من قبل ، فلم يسألنى عن شيء وناولنى ورقة بيضاء ومقصا وطلب منى أن ارسم بالمقص عروسة .

ولما كنت ماهرا فى الرسم ، فاننى أسرعت برسم صـــورة جميلة من ذاكرتى بالقلم أولا واجهدت نفسى فى توضيح التفصيلات الا أنه لم يعجب سيدنا الشيخ ، وهذا ما ضايقنى كثيرا ، واخذ المقص والورق وقص عروسة تشبه (خيال المآته) وثقب لها عينا فى رأسها ـ ثم كتب اسم الفتاة واسم امها على العروســـــة المقصوصة ، وملأها بعد ذلك بعدة حروف وكلمات غير مفهـومة ثم مررها على موقد البخور ، وطلب منا الانصراف على أن نعود فى نفس الموعد بعد ثلاثة ايام لنستلم المطلوب .

وبقدر ما سعدت وأنا ذاهب للقاء الشيخ ، بقدر ما حزنت عندخروجى ، وظللت صامتا ونحن نسير عبر الحوارى المظلمـة حتى خرجنا الى الشارع الرئيسى ، فاخرجتنا ضجة الشارع من صمتنا ، وسالت كمال ، صاحب الفكرة :

ـ وماذا بعد ذلك ؟

واندفع هو ، احساسا منه بأننى اتهمه ، يشرح لى الخطوات التى يجب ان اتبعها من جهتى ثم الخطوات التى سيقوم بها الشيخ من ناحيته ، وكنا ، حينما انتهى من حديثه ، قد وصـلنا أمام الفتاة وكانت جالسة فى الظلام على باب دارهم كما اعتادت رتبكت أشد الارتباك ، ومرت اللحظات القليلة التى استغرقت عبورنا امام منزلها وكأنها دهر كامل ، وكمال يـــكزنى فى جنبى ولكنى تجاهلته وهو يهمس لى بأننى يجب ان احييها على الاقل ، فهى الآن فى مجال فعل السحر من الساعة التى كنا فيها عنـد الشيخ ، وربما تكون هى الآن فى اشد حالات الشوق الى الحديث معى ولكن الخجل يمنعها ، ورغم الحاح صديقى بأن اكلمـها الا اننى لم اجد فى نفسى الشجاعة الكاملة ، وواصلنا سيرنا حتى منزلنا .

وفى هذه الليلة ، ظللت افكر فى (كوثر) واتخيلها احيانا تدق باب حجرتى او تدق على النافذة ، او انها قد دخلت الحجرة فعلا وجلست معى حتى الصباح .

ومرت الأيام وذهبنا الى الشيخ الذى اعطانا الحجاب المطلوب وطلب منى ان اضعه فى عنقى او على الأقل احتفظ به فى جيبى ، ولا يجب ان يفارقنى ابدا .

واحتفظت بالحجاب كما قال الشيخ ..

وظلت حبيبتى جالسة على باب منزلها ترقب الرائح والغادى ، وظللت انا اقنع نفسى بأى سبب او تعلل بأى علة لكى امر على منزلها ، حتى اصبح الشارع بالنسبة لى ممرا دائم العبور فيه من ساعة عودتى من المدرسة حتى تقفل الحبيبة ابواب دارها وتدخل لتنام ، واحيانا كنت اتشجع واتعقبها اذا ذهبت الى النهر لتملأ جرتها ، او اذا خرجت الى السوق ، ولكن لم تتقدم بى الحال اكثر من ذلك ، ولم تفاتحنى هى بحبها او حتى مجرد ان تظهر هذا الحب بكلمة او اشارة او ما ينبىء عن وجود هذا الحب .

وضقت ذرعا بهذا الحب المشلول ، وصببت غضبى على صديقى كمال الذى اشار على بالذهاب الى الشيخ الذى لم تفعل جنه ولا احجبته شيئا رغم انه اخذ اكثر من ثلاثة جنيهات حتى الآن .

وفى نفس اليوم ، الذى تشاجرت فيه مع كمال ، ذهبنا الى دار الشيخ الذى لاحظ الغضب المرسوم على وجوهنا . وكنا خلال زيارتنا المتعددة الى منزله قد اعتدنا عليه وعلى ظلام الغرفة والهمسات التى تدور فى الغرف الأخرى والأشباح التى تظهر وتختفى حتى اننا فى احدى المرات عندما ذهبنا الى منزله لم نجد

احدا فى اول الأمر وجلسنا فى أنتظاره ، واذا بنا نلمح فى الظلام شبحا يشبه الى حد كبير امراة عارية تماما يفر من حجـرة الى اخرى ، ثم بعد برهة خرج علينا الشيخ وهو يتصبب عرقا ويحاول اصلاح ملابسه ويتمتم بتعاويذه كالمعتاد وانشغلنا قليلا بالحديث مع الشيخ حتى خرجت امراة فى ملابس سوداء تخرج من نفس الغرفة التى خرج منها الشيخ ، وتقدمت الى الشيخ وقبـلت يده دون أن تنظر اليه ، وكان يبدو عليها الارتباك ، ثم خرجت مسرعة تخفى وجهها بشال أسود .

الحقيقة ان هذه الصورة جعلتنا لا نهاب الذهاب الى منزل الشيخ ولا نخاف الظلام ، بل اننى كنت اشعر بلذة تدفعنى الى الذهاب الى هناك ، واقنع نفسى باننى اخوض تجربة جديدة حية، واننى بزياراتى هذه يمكننى معرفة اسرار المهنة .

وحينما رآنا الشيخ على صورة شديدة من الفضب ، تبسم فى بشاشة وطلب منا أن نجلس ريثما ينتهى من الحالة التى معه لأنهم من بلاد بعيدة وتأخروا كثيرا ، ثم غاب فى الحجرة الأخرى ونحن نمسح بعيوننا المكان منتبهين الى كل حركة ، وفى نفس كل منا رغبة قوية فى رؤية شبح مرة اخرى ، وكلما صـدرت اى حركة من الغرف الأخرى نتخيل صورة الأشباح التى ستخرج . وبعد فترة خرج الشيخ بهدوء وهو يتمتم كالمعتاد ثم طلب منا أن نذهب واعطانى ورقة مطوية على ان احرقها وانتظر حتى تصـير ترابا فأمر عليها سبع مرات ثم اجمع ترابها مرة اخرى واضعه فى (سرة) اقذف بها فى قاع النهر واكد لى مفعول هذا (العمل) لأنه مزود بأشياء لا تعلمها نحن البشر .

حقا ، ما كان أسهل من أن يخدع عاشق صغير مثلى ، فيظل يدور فى متاهات لا أول لها ولا آخر ، ويجـرى خلف سراب

يرسمه شيخ دجال ، ولكن هل حقيقة أنه يوجد جن وجنيات في خدمة بعض الناس ؟.

وصحوت من خيالاتى ، على هذا السؤال ، وكان عبدالصمد مازال يشكو حبه المفقود والسمكة التى فى قاع البحر وامواله التى ضاعت فى البحث عنها ، فأعدت عليه السؤال ، فما أن سمعنى حتى كف عن الغناء وانتفض خائفا وهو يستعيذ بالله متلفتا حوله فى خوف . ولم تنفع كلماتى فى اعادة الهدوء الى نفسى ، فقد ظل عبد الصمد ينتفض ما يقرب من نصف ساعة ولم احصل منه على جواب .

ومر اليوم ، حتى العشاء وجلسنا جميعا حول الطعام ، وكل يمضغ أحزانه مع اكله ، رفع بهجت صوته (بنكتة) فلم يضحك أحد .. خيل الى اننا سمعناها كثيرا حتى افقدت معناها وحينما لاحظ فشله فى اضحاكنا صمت برهة ثم قال موجها الحديث الى :

ـ أنا ملاحظ انك معجب بال .....؟

وصاح أحدهم متصنعا المرح :

ـ أنا أول من يحضر الفرح .

وانقلب صمتهم الى ضجيج ، وتناسى كل منهم ما يحزنه وحاول أن يغرق نفسه فى شيء مثير ، وتصايحوا جميعا بين مستنكر ومؤيد ، أو بين شارح لعواطف أهل البدو وعاداتهم وآخر يرسم خطة الزواج ، ولا أحد يسمع للأخر . كل يتكلم ولا ينتظر من ينصت اليه ماعدا طلعت فقد كان يأكل فى صمت وينظر الى ، وأنا لا أدرى ماذا أفعل ، هل أقف على أحد المقاعد واشرح موقفى وانفى عن نفسى واقعة الحب ؟ أم أسكت وادعهم يتصورونني حبيبا مغوارا استطاع أن يخطف فاتنة البادية وفتاة الصحراء ويهرب بها ؟

جاء أمر التحرك الى المنطقة الجديدة ، وبدأ الاستعداد للرحيل ، وأصبح للمعسكر أمران يتحدث فيهما ، أولهما المنطقة الجديدة وما تتصف به من طبيعة قاسية وصعوبة فى الوصول اليها ، وثانيهما : سالمة وعلاقتى بها وما تبع ذلك .. أقاصيص المقابلات الغرامية التى راح اعضاء المعسكر يتناقلونها فيما بينهم سواء فى السر أو العلانية . رأعنى ذلك ، فقد جعلونى بطلا لقصة حب عنيفة مع فتاة البادية .

وحرت فى أمرى ، وخاصة بعد أن وجدت طلعت ، هو الآخر رغم انه لم يشترك فى الحديث يتحاشى لقائى وكلماتطلعت اليه أسأله المعونة نظر الى السماء وعلى فمه بداية ابتسامة ولا يتكلم ، وخيل الى أننى أسقط فى بئر عميق ولا يمكننى الخروج منه ، وتسد جدرانه العالية الطريق أمامى وتحجب الرؤية عنى ، ولا مناص لى الا أن أظل اعوى داخل البئر كذئب جائع ، حتى يتمكن أحدهم من انتشالى .

كيف أتصرف ؟ أقسم لهم حتى يصدقوا بأنه لا توجد علاقة حب بينى وبين سالمة ؟ ولكن هل لديهم الرغبة فى التصديق بعد أن وجدوا شيئا مثيرا يتحدثون فيه ؟ ومن المحال أن أنزع منهم ما يطيب لهم مضغه فى أفواههم ، وأسعدهم التحدث عنه وعن تفاصيله . وهفت نفسى الى التصديق ، وتمنيت أشياء ، ودار

في عقلي سؤال هل حقيقة لا توجد علاقة ما بيني وبين سالمة ؟ الم اعش معها في احلامي . واحتضنها بين ذراعي ؟.. اليس الحلم رغبة في اعماقي تود ان تتحقق في الواقع !

وهي ، سالمة ، لماذا تاتي الى المعسكر كثيرا بعد أن قابلتها في تلك الليلة التي كدت اضل طريقي ؟.. ولماذا تحاول أن تبحث عني كلما جاءت الى المعسكر حتى انها تكثر من الحضور الى خيمتي متعللة بأي سبب ؟ ربما تحبني . ولم لا !! هي الأخرى لها احساس وعاطفة وقلب وأحلام مثل بقية الفتيات في مثل سنها !

وغرقت في البئر اكثر وبدلا من التفكير في الخروج منه ومواجهة عاصفة الأكاذيب التي يشنها بهجت . جلست أفكر في الحب ، هل حقيقة احبها ام مجرد اكذوبة ؟ ، وهل ما حدث بيني وبينها أحلام أم حقيقة ؟

وشاعت قصة الحب ، وكل يوم يضاف اليها المزيد من التفاصيل وكل يوم يشعل فيها بهجت مزيدا من نار الغيرة في قلوب زملائي في المعسكر تجعلهم ينظرون الى وكأنني احتفظ بكنز هائل اشتركنا جميعا في البحث عنه وحينما وجدناه انفردت به وحدي دونهم جميعا أحشو به جيوبي وفمي وحقائبي تاركا الرفاق دون شيء يحصلون عليه .

فهم جميعا يقضون اوقاتا طويلة في الصحراء لا يرون فيها نساء او فتيات .. وسالمة تروح وتغدو في المعسكر .. مجرد طفلة شرسة ولا تحتسب من انواع النساء أو الفتيات ، وحينما شاعت قصة الحب حولها ، كانت بمثابة خلع القناع عن وجهها .. وكأن سالمة دخلت صالون تجميل وخرجت منه أجمل امرأة في العالم . واصبحت بعد قصة الحب التي أشاعها بهجت وملأ بتفاصيلها عقول الشباب المحروم وسط الصحراء ، وكأنها

حورية من الجنة والأمل المنشود وواحة السعادة التى يبحثون عنها، وانقلبت معاملتهم لسالمة من مجرد فتاة بدوية تلتقط بقايا الطعام الى فتاة يحلم بقربها كل الرجال . واصبح حضورها الى المعسكر مثار كثير من التعليقات وفرصة لأن يسرع كل منهم محـــاولا التحدث اليها ، ربما يظفر منها بشىء ، كلمة أو لعنة تقـــولها بلهجتها البدوية أو حتى تقذفه بحجر وهى تضـحك . وأحسست اننى المتسبب المباشر فى كل ما يحدث لسالمة ، ومن الواجب أن احاول حمايتها ، ولكن كيف ؟

وبقدر ما أزعجنى ما احدثه بهجت فى نفوس افراد المعسكر بقصة الملفقة ، بقـدر ما اراحت نفسى واشاعت فيهـا الراحـة وبعثت فى قلبى النشوة .. فكم هو جميل أن تشعر أنك محبوب من شخص ما ، أو مجرد انك موضع اعجاب ذلك الشخص ،حتى لو كان الأمر كله أحلاما واكاذيب ، والنظرات التى أراها فى عيون افراد المعسكر والتى تدل على الاعجاب المشوب بالحسد لأن سالمة اختارتنى أنا دون بقية أفراد المعسكر لكى تعجب بى وتضـحى بتقاليد قبيلتها وتعرض نفسها للقتل فى سبيل حبى ، تزيدنى تلك النظرات الشعور بالغرور الرجولى .

ولأن الانسان يعيش وفق نتائج تجاربه، فاننى عشت تلك التجربة بلذة مزدوجة او بنشوة ممزوجة ببعض الخوف ، واذكر ايضا ، حينما كنت اذهب الى دار الشيخ ، وانا مراهق اتوسل اليه أن يكتب حجابا يجعل حبيبتى تجرى خلفى .. كان ينتابنى شعور مزدوج بالرهبـة والخوف من المنزل وما يحتويه من عفـاريت واشباح ، ومن التجربة نفسها ومن تعاملى مع احد الأشـخاص الذين اشعر نحوهم فى قرارة نفسى بالـكراهية ولوثوقى بعـدم صدق حديثهم ، وشعور بالفرحة لأننى سأتمكن عن طريق هذا (العمل) الذى يقوم به الشيخ من الحصول على قلب حبيبتى

وتصبح حياتى نعيما مقيما ، وكلما تذكرت تلك الأوقات الرهيبة التى اذهب فيها بعد آذان العشاء الى حارة الشيخ المظلمة الساكنة الا من اصوات الصراصير الرتيبة ، نتحسس طريقنا انا وصديقى كمال حتى نصل الى باب الدار ، ثم صوت الباب الخشبى وهو يئن بغلظة عند فتحه أو غلقه ، أنينا مجروحا يثير الحـزن فى القلوب ، ويحتوينا المنزل برائحته وبخوره وظلامه وانفاس النسوة والرجال المحشورين داخـل حجراته الضـيقة ، والهمسـات والأصوات وانات النساء ونواحهن وشهقاتهن فى بعض الأحيان. ورؤية بعض الأشباح العارية التى تثير فينـا شـعورا بالرغبـة المقرونة بالخوف وتكرار تلك التجربة يوما بعد آخر يجعل الانسان لا ينسى مطلقـا تلك السـاعات وتظل ذكراها تطوف بخيـاله . وخصوصا كلما فكر فى الحب أو وقع فيه .

وتمنيت فى نفسى ، حينما ضاقت بى الأمور ، أن اعثر على (جنية) مثل جنية عم مغاورى ربما يمـكننى عن طريق هـذه الجنية ان اضع حلا سعيدا للمشكلة ، ولكن كيف ؟ كيف يمكن للجنية ان وجدت ـ أن تقدم حلا ، وطريقة تنفيذه !!

وفى صباح اليوم التالى ، وقبل أن افيق الى نفسى وأسترد ما اخذته الأحلام فى خلال ليلة من ليالى الوحـدة والنـوم على الرمال المملوءة بالحشرات .. سمعت صـوت احدى سـيارات الشركة تقف على مقربة من المعسكر ونفيرها يعلو معلنا وصـول من فيها . واسرعت مع الباقين ، وكانهـا كانت الأمـل أو عجلة الأمان . وبكل حرارة الشوق الى لقاء زميل جديد جاء من قلب المدينة وعاش فيها وبين أضوائهـا وحرارتهـا وما يزال يحمـل رائحتها ، استقبلناه .. وبكل الرغبـة المضطربة فى صـدورنا لخوض تجربة جديدة ، وبكل حماس الشباب المندفع .. راحوا هم يحدثوننـا ، ونحن ندور حولهم ونتلمسـهم ونسـال ونقك

الاربطة بحثا عما جاءوا به . وبين ضجة اللقاء بيننا وبينهم ضاعت كثير من التفاصيل ، ولكن . رغم الكثير من الأوامر التى اتوا بها . لم أتبين منها الا ذلك الأمر الغريب بنقلى الى اسيوط . احتويته فى حزن وأخذته معى الى فراشى وجاست طوال ليلتى تلك افكر واعيد الفكر فى الأمر وملابساته وظروفه ، والحزن القديم الذى يحتوينى كلما نقلت من عمل الى عمل يعصر قلبى ويشعرنى بالشقاء والتفاهة .

وحينما قابلت طلعت فى الصباح سألنى قبل ان يبادلنى التحية :

— متى سنرحل ؟

وحزنت لرغبته فى سرعة رحيلى الى هذه الدرجة ، فلم اجب ونظرت اليه ، كان متهللا ضاحكا وقال :

— هل انت حزين لأنك ستفارق سالمة ؟

— حتى أنت أيضا !!

— لا تغضب .. هناك فى أسيوط سوف تجد الكثيرات .

— اسيوط !

وواصل طلعت حديثه بنفس الروح المرحة ، وانا حائر حزين وأود أن أصفعه او على الأقل اتركه وامضى ، ولكنه قال فى اصرار :

— يقولون عنها انها مدينة جميلة ، وسأحاول ان اجد مسكنا فى المدينة ، ولكنى لن أقضى معك فى أسيوط الا عاما واحدا وبعدها اسافر الى المجر لاستكمال دراستى .

وآثارت كلماته انتباهى ، وفهمت قصده ونظرت اليه أسأله المزيد من التفاصيل ولكنه راح يتحدث فى حماس عجيب عن

ابحاثه ، ومشاريع المستقبل ورسالة الدكتوراه ، يجذبني أحيانا لأنصت جيدا ، ويتركني ويعبر عما يقوله بيديه وانا لا املك الا ان استمع اليه وقد هزتني مشاعره والعديد من الأسئلة تطفوا أمام عيني حتى غلبتني الأفكار السيئة والمشاعر الحزينة وطفت على حديث طلعت ومشروعات مستقبله . ثم مددت يدى الى طلعت وأنا اردد :

ـ انشاء الله ، موافق ، طبعا موافق .

وتركته والألم يعانقني من كل جانب ، ومرارة في حلقى ، ولا أدرى هل تلك المرارة بسبب فراقى سالمة وتيقنى من انني لن اراها بعد ذلك ؟ أم مردها لأمر آخر ، ربما يكون السبب شعورى بالاهانة لنقلى بهذه السرعة الى اسيوط ، ولماذا نقلونى الى اسيوط ؟ لابد أن يكون هناك سبب هام ؟ وسواء أكان هذا أو ذلك فان فراقى لزملائى ، للآلات ، وللمناطق الصحراء التى تعودت عليها ، أليما ومحزنا .

امى ، انهم هناك فوق الصدر يا امى يهرسون الضلوع بأقدامهم ويغرزون اصابعهم في العيون ، ويصيحون ويهللون ، انهم ذئاب جائعة بعيون حمراء شرسة ، وانا يا امى ملقى على الرمل البارد انينى ضعيف خافت وقلبى معلق أمام عينى يقطر دما ، وانت يا امى بعيدة تسألين الليل عنى ، الم يقل لك اننى فى حاجة اليك ؟

الحياة تستمر وتفقد لحظات توترها بسرعة .

وبعد اسبوع كنت أعيش ضمن خمسة من الشبان فى شقة متوسطة فى احدى العمارات الحديثة التى يبدو انها بنيت بسرعة نتيجة لضغط ازدحام المدينة بالجامعة وطلابها والعاملين بهـــا ، فلم يهتموا بالهندسة الجمالية للعمارة ، الشقة تلاصق الاخرى بحوائط رفيعة ، الحجرات ضيقة حتى تشعر انك تســكن فى احدى خلايا النحل ، الأمر الذى جعل ساكنى العمارة وخصوصا بعد دخول الشبان الخمسة بينهم — فى حيرة من أمرهم وحرج شديد . فلا يمكن أن يكون هناك سر تحفظه الجدران فاذا غضب عبد الباسط أفندى الموظف بالمساحة مع زوجته لأمر ما ولعنهـا ودارت بينهما معركة كلامية حامية ، سمع الجيران بالأمر وأخذوا يعلقون واذا تخاصم اثنان من أبناء الست لبيبة ، او تعارك أحدهم مع الخادمة أو تطاولت هى على زوجهـا أو اتفقا على شــكوى صاحب البيت أفلا سر هناك والجيران أول من يعرف . والست لبيبة حينما تتحرك فى حجرتهـا أو تذهب الى المطبخ وضـعنا أصابعنا فى آذاننا حتى لا نصاب بأذى من دوى خطواتها .

ونحن أيضا لنا مشاكلنا التى لاشــك تصــل الى الجيران ، محمد ، الموظف بالتربية والتعليم دائم الثرثرة والضحك كما انه دائما يخطف ما يقع تحت يده مما يؤدى الى عراك دائم معــه ،

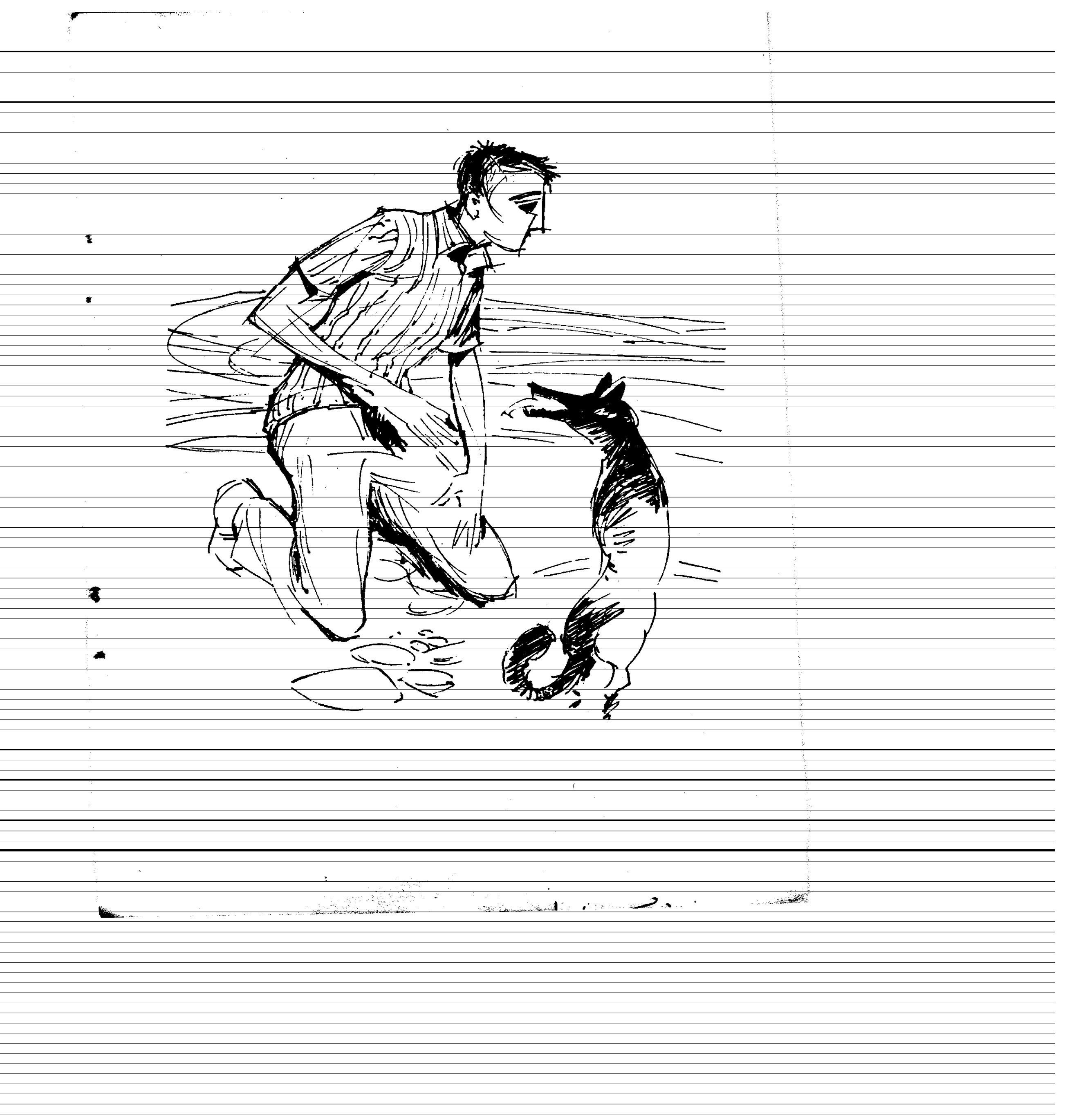
وحسين ، الموظف بمجلس المدينة يهوى الغناء ، ويصر دائما على رفع صوته فى المنزل وكذلك عبد الستار المعيد بالجامعة لا يخلو من شذوذ فى كل تصرفاته ويصر على ان يعدل مجرى الأمور ولا يعجبه شيء فى نفسه ولا فى المدينة ولا فى الدنيا كلها ، ولا يبقى من الخمسة الا طلعت وانا ، اما طلعت فهو مشغول بأبحاثه ، وانا احلم .

وكانت للست لبيبة ابنة سمراء على جانب قليل من الجمال، نحيفة متوسطة الطول ، فوق العشرين بقليل ، وفاطمة ــ هذا هو اسمها ــ تبدو احيانا كأحد التماثيل المشوهة الملقاة دون عناية على جانبى الطريق فى احدى قرى اسيوط . قابلتها على السلم عدة مرات صاعدة أو هابطة ، كسيفة البال ، فى عينيها نوع من الاستسلام الحزين .

والزملاء الأربعة ، الذين يسكنون معى ، او بمعنى اصح اسكن معهم مشغولون دائما سواء فى المنزل او خارجه ، فى عراك دائم حول البعثات ومواعيدها . أو حول فتاة اختلفت الآراء فيها ، أو حول توزيع العمل داخل الشقة ومن يطبخ ومن يحضر الطعام من السوق .

وانا احلم ، مجرد احلام اعيش فيها واندمج معها وادفن نفسى دون حركة حتى لا يصدر عنى سوى خيالات لحركة عصبية لا ارادية .. احلم مرة بالسلطان ، واحلم بالعودة الى الصحراء مرة اخرى . أو ارجع الى القرية واحكى حواديت الصغار واركب الجنية مع عم مغاورى .

اقرا الجرائد دون تفكير ، واحلم بالجنيات واذهب الى عملى فى ساعة متاخرة لأعود منه فى ساعة مبكرة ، ليس لى مكتب ولا عمل معين ، أجلس بجوار أحدهم بعض الوقت .. أحيانا يطول حين يأتى الحديث عن عملى السابق فى الصحراء أو يقصر حين



يشيرون علي بضرورة التحدث مع المدير لتحديد نوع عملى فلست براغب فى العمل . ماذا أفعل بين دوسيهات باهتة ملتصقة وارقام ورزم ورق وكتابات كثيرة ، وارفف خشبية . واصرخ فى نفسى : لماذا نقلونى الى هنا ؟ من أجل عمل معين ! . الأحسن ان ادعهم يبحثون وانا ابحث ايضا .

سالمة الحبيبة ، البعيدة .. الجميلة .. ذات الشعر الجميل الأسود والفم المستدير ونداء الحب على الشفاة ، وجبين صارم ينسينى حديث اللهو ويوقف الكلمات قبل ان تتكون فى فمى .

او تذكرنى مثل ما اذكرها وتتخيل تفاصيل صورتى كما افعل ؟ ام ان فراغى وخيالاتى هى التى تصنع الحب او خيال الحب ، ربما تكون جالسة الآن تفكر او ربما تجرى ضاحكة كما كانت تفعل .

وامى وشالها الأسود وجلستها عند باب دارنا تدعوا الله ان يسكب فى فمى جوهرة ويجعل كلامى مثل الشهد ، ويبارك خطواتى ويسعدنى فى الدنيا والآخرة ، امى وتقاطيعها السمراء الدقيقة وبسمتها الحزينة وجيران امى الضاحكين حول قدور اللحم فى ليلة العيد وقطع العجين وذرات الدقيق تغطى ملابسهن واطفالهن بين ضاحك وعابث ، وزعيق حمار عائد من الحقل وصياح افراخهن ، وأمل فى الصدور يداعبهن بليلة عيد سعيد ، وامى تروح وتجىء ، هذا موعد حضورى واذهب اليها ، وحقيبتى تحمل أشياء اشتريتها بقروشى ، ونظرات بنات الجيران ، هاقد عاد من البندر وهو يحمل اشياء جميلة ، وربما يضحكن بصوت عال وهن ينظرن الى وربما يبتسمن .

ولأن المدينة تنساه فى زحمة جريها خلف أضواء النيون وعلب محلاة بأشرطة ذهبية ، فالعيد فى القرى يحمل رائحة الكعك

واللحم وفرحة الصغار بملابس جديدة ، وفرحة اللقـاء بالأبنـاء التائهين فى برارى المدينة .

نعم يا أمى لقد اقترب العيد وسـوف أذهب اليك مهما كانت الأمور أحمـل فى يدى قطعة قماش وشـال أحمر ، كنت أود ان أحمل اليك المزيد من الحياة ، ولكن الحياة تلهو عنى .

ـ مالك يا ريس ؟

وصحوت على نداء زميلى وهو يجذبنى لأجلس بينهم وأتناول الطعام ..

ـ سالمة فى اسيوط ..

ـ مش معقول !

وانتبهت جيدا الى الحديث ، وانتظرت التفاصـيل ، ولـكن للأسف كان مجرد مداعبة وشراك نصب ليعرفوا فيما أفكر .

وفى غياب زملائى ، والمنزل خال الا من أصداء أصوات الجيران ونداءات الباعة فى الشوارع أحس بأننى حبيس وحزين والنـاس من حولى سعداء يضحكون ويسخرون منى . والخروج يعرضنى لمواجهة هـذه السـخرية . فكنت أقضى فترات طويلة بمفردى جعلتنى على دراية بأحوال الجيران وعاداتهم وأمزجتهم جميعا .

وفاطمة تدور فى حجرتهـا وكأنهـا فى عراك مع شىء ما ، والخادمة السمينة تداعب أخاها فى حجرته ، وأمهـا فى المطبخ تتحرك فى بطء وتنادى على الخادمة التى تسرع تاركة الفتى يلهث فى انتظارها لتعود ، وما ان تعود حتى تناديها فاطمة تسألها عن شىء ما وأردت فى أحـد الأيام أن أنظر من خـلال نافذة حجرتى وكانت تطل مباشرة على غرفة فاطمة من خلال (مسـقط النـور الضيق) فوجدتها نائمة على فراشـها وكأنها تتلوى ، ومرت فى نفسى لذة غريبة وظللت مستسلما لوقفتى ونظراتى تتابعهـا رغم

احساسى بالخجل ، وفجاة رفعت فاطمة عينيها ، واصطدمت بنظراتى المتطفلة ، وظلت لحظة دون حراك ثم بسرعة اغلقت النافذة فى وجهى .

وتحركت فى عقلى الصور ، والفراغ القاتل يعصف بى ويجذبنى الى قرار سحيق من الخيالات ، عيون فاطمة ترقبنى من اسفل البئر ثم من اعلى وتدور حول راسى ، وتسرع الدوران ويرتسم خط من العيون ، حزينة تنادى وتشدنى ، لأجرى خلف الرؤيا الباهتة وامتلأت احلامى مرة اخرى بفاطمة .

ومرت الأيام ، وفاطمة ترقبنى من اسفل من نافذة حجرتها وانظر اليها من نافذتى .

وفى احد الأيام لم اذهب الى مقر عملى واخذت اتسلى بصناعة نوع من الطعام ، وانسانى ذلك عن النظر من النافذة ، ولكن بعد قليل سمعت طرقات خفيضة على باب الشقة ، ظننت فى اول الأمر انه مجرد وهم ، ولكن الطرقات تكررت فى الحاح جعلنى اسرع الى فتح الباب فوجدت فاطمة التى اسرعت بالدخول واغلقت الباب خلفها .

كنت اود ان اصرخ او ابكى او اضحك او اضرب راسى فى الحائط لاتاكد مما حدث ، ولكن فاطمة لم تعطنى الفرصة لذلك ، قالت بعض الكلمات فى ارتباك لم اتبين معناها ، وتلعثمت انا الآخر وتلاحقت انفاسى وحرت فيما افعل ، وخطوت نحوها واردت ان اشير عليها بالجلوس .

حمرة الخجل وحرارته ، وقطرات العرق الذى يبلل الأجساد ورعشة الجسد وهو يصيح تجعل الحقيقة لها اجنحة ترفرف على الوجوه فتهب الريح الباردة لترطب الوجه الملتهب ،ومرة اخرى اعود لفتح الباب ثم ارتمى على فراشى منهوكا مضعضع الحواس ليست بى رغبة الحلم ولكن بى حاجة الى النوم .

- ٩ -

وتكررت زيارات فاطمة لشقتنا ، فى الأيام التى امكث فيهـا فى المنزل ولا اذهب الى عملى وفى كل مرة ، وبعــد أن تذهب ، ارتمى على فراشي شارد الفكر واحساس بالألم يهزنى . وما اكثر الأيام التى تغيبت فيها عن العمل .

حينما يأتى الصباح واندفع الى ارتداء ملابسى بسرعة واستعد للخروج ، اتكاسل دفعة واحدة ثم اخلع ملابسى واجلس فى محاولة لقراءة الجريدة وعقلى شـارد وعينـاى على البـاب واذنى تلتقط الأصوات على درجات السـلم ، وما أن اجلس واتصـفح الجريدة حتى اندفع مرة أخرى الى ملابسى ارتديها لأهرب من نفسى خارجا، ولــكن الوقت يمر ــ وفاطمـة لاحظت تخلفى بينمـا خرج كل الصحاب ، فتدفع الباب وتندفع الى احضـانى لتجذب اللذة من صدرى فتطفو ويتحرك الدم فى عروقى واشـعر بالعطش . فاذا ارتويت ، جلست اعتب على نفسى والومها على اندفاعها وابكى فى نفسى على شيء ضاع ، وعلى ما فقدت حتى يغالبنى النوم .

وزملائى فى المسكن لا يعلمون ، او هم يعلمون ولا يتكلمون ، وسواء اكان هذا او ذاك ، فاننى اتحاشى نظراتهم واتجنب اللقاء الصريح معهم ، الصراع فى قلبى وعقلى يهز كيـانى ويبـاعد بنى وبين لذة العيش ، واظل طوال الليل نهبـا للهواجس والافكار ..

أفكر في الموت والعذاب والنار والرغبة تجتاح جسدى ، وفاطمة تبكى فى وهن مستسلمة أكاد أخنقها من العناق .

وفي الأيام التى أهرب فيها من المنزل ، اسير هائما على وجهى في حوارى اسيوط انقب عن شيء اتسلى به او أهتم ، ويظل عقلى جائما حول تفاصيل اللقاء السابق مع فاطمة ، وخيال يحوم في حجرتها باحثا عنها أو عن شيء يخصها ، ويدفعنى التلهف الى رؤيتها الى الرغبة فى العودة ، ولكن عناد فى العقل يقودنى الى الذهاب بعيدا لأدور حول الحقول وأسمع نداءات الحب فى أغنيات الصبايا يرددنها فى عذوبة .

الحب الطائر الهائم حول المدن والجبال ، الشادى فوق القرى والذرارى ، العائم فوق السحاب وفى أعماق البحار ، الممزوج بالحياة الشفافة ، المزغرد فى قلوب العذارى الذى يجذبنى اليها ، وسالمة تبتسم وتجرى على الرمال وتنادينى وتشدنى معها الى أعلى .

ثم يأتى المساء فيسرى فى جسدى برودة الليل فى اسيوط مع نسمات تحمل الحزن وصوت طائر يعود ، ثم خوار بقرة متلهفة الى ابنها ، وبكاء طفل ، ويسحب الظلام بقية شعاع الشمس ليضمه في رفق خلف الجبل الذى يمتد طويلا طويلا ويلتف حول المدينة في قبضة عنيدة وينام ، فتجثو المدينة من الخوف وترتعد من البرد ، ومصابيح قليلة مذعورة مغروسة فى الطرقات ، وتتقلص الحياة وتضيق لأعود الى غرفتى ، الى أحلامى الى نظرات فتاتى الشرسة ، الى عراك حول غسيل كوب أو طهى طبق الفول مع زملائى ، ونظريات الفضاء ، وذرات الرمال ، وانكسار الضوء ورغبة قوية للسفر الى المجر ، مختلطة بلعنات أم اسماعيل تقذفها حول ابنها دون رحمة ، وازيز وابور الجاز ومواء قطة ونداء

بائع اللبن ، ولا يستمر هـذا الا سـاعة ثم تموت الأصـوات فى قبر الليل الصعيدى ، ولا يسمع الا مواء قطة أو طلقات رصاص آتية من بعيد ، وانا حائر فى غرفتى تعبث بى الأفكار والأحلام ، واعبث بها حتى انام .

... وتمر الأيام .

وامر بهـا متخبطا تائها لا أعرف هدفا ، حتى ولا اعرف نوع عملى ، وكأننى اهيم فى الفراغ ، تحولت الصور الى أشباح وتحولت الحوادث الى قصص خرافية ، وتبدو لى المعركة فى منزلنا حول البعثات الى الخارج ، أو مشـاكل العمل ، أو الترقيات ، أو حتى مشـاكل الحياة العادية وكأنها صور باهتة لا حـدود لها تظهر من بعيد .

ولـكن فى يوم من الأيام ، وصـل أحد أصدقائى ممن كنت على صلة بهم أثناء عملى فى الصحراء . وهو شاب طويل حتى انه يمشى بانحناءة بسيطة وكأنه يعتذر عن طوله ، رفيع كنخلة ضامرة على جبـل النـوبة ، وديع هادىء طيب القلب يهوى الحشرات ، جمع الحشرات من كل الأنواع والسلالات ويراسـل كل المجـلات العلمية التى تصدر فى هذا المجال فى انحاء العالم ، وبيته يشبه متحفا حيا لجميع انواع هذه المخلوقات ، تعرفت به فى الصحراء حيث كان يعمـل ضمن بعثـات البحرية الأمريكيـة التى تطوف بالصحارى ، تجرى ابحاثها حول الحشرات .

وابراهيم ، وهو اسم صديقى — يجذبنى اليه بحكاياته الكثيرة عن رحلاته وأبحاثه وبقصصه التى يرويها من عالم هذه الـكائنات الدقيقة ، كان حينما يحـكى تلك القصص يبث فى نفسى رغبة ما تجعلنى اتذكر حواديت الصبـا واقاصيص شـيوخ قريتنـا ،

وتعلقت به ولا ادرى سبب ذلك هل يرجع الى حواديته وقصصه ام يرجع لسبب آخر ؟

وعرف عنى ابراهيم هذه الهواية فراح يقص على فى كل مرة يلاقينى فيها اخبار رحلته الجديدة وما حدث فيها ، وعندما يرى انبهارى بما يرويه ، يجذب حقيبته السوداء ويخرج منها مجموعة الصور التى تثبت صحة روايته ، وينتشى ابراهيم لرؤية الدهشة المرتسمة على وجهى وانا استمع اليه وهو يروى عن الثعبان والدودة والصرصار والقراد .

فرحت بصديقى ، واقبلت عليه احادثه ، واتذكر ايامنا الماضية سعيدا به وبزيارته التى جذبتنى الى السطح وابعدتنى عن الصراع الداخلى الدائر فى اعماقى ، ومضت ساعة والحديث فى بدايته ولكن لاحظت انه مرهق فاقترحت عليه النوم وفى الصباح نكمل ما فاتنا ، وقبل ان ينام عرض على الذهاب معه فى رحلته القادمة .

وكان سالمة تسكن فى الصحراء ، وان الصحراء تعنى سالمة اراها حينما أرى الصحارى ، وانبثق فى تصورى طيفا مؤنبا عاتبا فى رقة ، داعيا الى الود والصفاء والصفح عما مضى ، فاندفعت اقبله واشكره على دعوته ، كان يجلس على مقربة منا زميلى طلعت الذى رفع راسه من فوق كتبه وقال موجها الحديث الى ابراهيم :

ـ اظن يا استاذ ابراهيم البعثة ستمر بالقرب من معسكر ابحاث المياه ؟

فرد عليه ابراهيم بسرعة :

ـ لا ، .. سنمر بجوار الاقصر .. اى خدمة ؟

ـ لا .. شكرا .

وانحنى طلعت مرة اخرى على كتبه وابتســـامة خبيثة تظهر على فمه وهو يردد :

— على بلد المحبوب وديني ..

ولم يفهم ابراهيم ما يعنيه طلعت فجلس صامتا فى خجل ، وذهبت انا لأصــنع شـــايا ، ونار هائلة تصـــعد الى انفى واذنى واحساس بخيبة الأمل يجفف حلقى ، وابتسامة طلعت الساخرة تبرق أمام عينى فى وقاحة .

وعلى الرغم من هــذا ، فرحت بالرحلة ، وبريق ضـئيل من الأمل ، فمجرد رؤية الرمال وســماع صــوت الريح وهو يحرك الكثبان ، سوف يجلب لى السعادة ، ربما أقابلها لو شــاء الحظ الطيب فهم رحل وربما يرحلون الى المنطقة التى نقصدها .

لا تغضبى هكذا ، انتظرى فقــط وستعلمين كل شىء فــى حينه ، يا لك من عنيدة . لقد قضيت ليلى أفكر فيك ، ومشيت يومى أتخيل لقاك وسرت دربا طويلا فى الصــحراء حتى أجدك . ثم تغضبين ماذا ، فاطمة ! من فاطمة هذه ؟ ابنة الجيران ليست لى علاقة بهــا ، انهــا مجرد اشـــاعات حملوها لك مجموعة من الواشين . حسنا . ما أجمل ابتسـامتك ، وما ارق حديثك ، لو أنك لم تصفحى عنى لمت كمدا ، ولكن حمدا لله لقد تجمع الشمل من جديد .

وفى الصباح كان كل شىء على ما يرام ، سيارات البعثة على اهبة الاستعداد ، ســيارة الدليل فى المقــدمة ، وهو رجــل من اهالى الواحات متقدم فى السن ، من خلفها سيارة قائد البعثــة وهو امريكى طويل متجهم الوجــه عابث النظرات ويركب معـــه مساعده وطبيب البعثة ، ثم فى السيارات الثلاث الباقية يركب

اعضاء البعثة مع اجهزتهم والاتهم وبنادقهم ، ويأتى بعد ذلك عربات التموين والمياه والاسعاف والخيام وادوات المعسكر ، وجلست انا بين ابراهيم وباحث آخر يدعى (سميث) فى سيارة خلف سيارة القائد .

وحينما أعطى القائد اشارة البدء ، واندفعت السيارات نحو الطريق الجبلى تاركة اسيوط خلفها . نظرت خلفى وابتسمت ثم اعتدلت فى جلستى ، محاولا اهمال ما مضى والاقبال على ما يأتى بروح وامل وقلب جديد .

ولكن الحديث الذى دار بين ابراهيم و (سميث) دفعنى الى العودة الى ذكرياتى باحثا فيها لعلى واجدا فيها ما يؤنس وحدتى فحديثهما يجرى عن امور لا افهمها ولا استطيع متابعتها والطريق هضاب فى هضاب لا يوجد ما يثير الاهتمام بالرؤية ، صور مكررة تتتابع ، وازيز العربات واهتزازها على الطريق الجبلى يصم الآذان ويجبر الانسان على الصمت . فلم اجد بدأ من السلوى بين افكارى !

وطافت فى خاطرى حكاية عم مغاورى ، وسألت نفسى عن حياته ودلفت الى عقلى صور ضاحكة ومعارك قتال وفرسان ملثمة ثم هجوم على قافلة كانت تحمل عروسا الى دارها الجديدة ، وعويل نساء وصليل السيوف ، وقرقعة الدروع ، وجنيات تخرج من اعماق البحار تغنى وترقص ثم تختطف فارساً يجلس على شط قناة .

اى جنية يمكن أن تحقق لانسان امانيه وما اكثرها ؟ ما الذى دفع سميث أن يأتى من سيدنى باستراليا ليجوب صحارى العالم . باحثا عن حشرة تسمى (القراد) معرضا حياته لخطر الحوادث ، سائرا فى طريق لا يعرف طبيعته ، مندفعاً يتخطى اى عائق ..

ضاحكا .. لاهيا فى جولاته باذلا كل قطرة من جهده فى صبر واصرار . هل يمكن أن يجد (سميث) فى حشرة القراد جنيته المنشودة ؟ التى تحمله الى الأمانى وتحقق ما يصبو اليه ؟ ربما !! وكذلك الباقى – أعضاء البعثة – الذين جاءوا من بلادهم البعيدة تاركين الأهل والولد والأحباب والذكريات والأحلام ليسيروا خلف حشرات باحثين مدققين فى حياتها ..

ربما .. ولكن ما هى الحشرة التى ابحث أنا عنها ؟ ما هى الجنية التى أبحث عنها واركب عليها لتقودنى الى عالمى ؟ لا شيء ، لا ابحث عن شيء ، فقط اتذكر اشياء حدثت واحلم بأشياء تحدث . كيف تحدث الأشياء فى المستقبل ؟ فقط فى الأحلام . وهل مثلى آخرون ؟ ربما .. هؤلاء الذين يجلسون فى المقاهى أو لاهون حول دور الملاهى او الباحثون عن بائعات الحب أو شاربو الخمر أو غيرهم .. وربما .. أكون وحدى هذا التائه .. أحب خيالا بعيدا فى الصحراء تركته خلفى ، تعانقنى متعة جدية لا تدوم . وأحب أمى ولكنها بعيدة هى أيضا فى القرية .

وحجاب وراء حجاب .. ونقودى القليلة تسيل من يدى ، وكلما ضقت ذرعا بمصاريف الشيخ جذبنى كمال من يدى لنذهب مرة اخرى فى الظلام ، ونتسلل فى صمت ، وندلف الى المنزل فى سكون ونجلس القرفصاء فى خوف ، وكومة الأحذية الكالحة تصور لى عالما غريبا .

نعم .. انه عالم غريب ، كل يبحث عن جنية .. وكنت فى انتظار جنية تلهف قلب حبيبتى وتقدمه لى على طبق من الذهب يرتعش من الحب وينتفض فى لذة أو الم ويسيل لعابى لأختطفه بسرعة وابتلعه ، واهتز اهتزازا عنيفا – انتبه جيدا .

ـ ماذا حدث ؟

ـ انزل من السيارة ، سنتوقف هنا للراحة .

منطقة خالية جرداء تماما ، تقع بين هضبتين ، بعض الاحجار الداكنة اللون تجلس فى تكاسل ، على مقربة منها بعض الأحجار الجيرية الصغيرة .. الأرض متماسكة الى حد ما .. أصوات الدليل والطباخ مختلطة بأوامر قائد البعثة .

وسرعان ما انتشرت بعض الخيام الملونة أحاطت بها السيارات، وارتفعت رائحة الطعام مع ضحكات (سميث) الخشنة ، ووقف (ايمى) اقصد (ايمرسون) امام عدة خرائط يحدد الطريق ومعه الدليل يتحدث معه بنفس لغته في طلاقة ، واحسست أن الحياة دبت فى المكان ، آلات تصوير وآلات للمسح الالكترونى ، غناء الطباخ .. ثم دعوته لنا للطعام .. ووجدت مائدة حقيقية ومقاعد وورود وماء وطعام ساخن وتجمعنا حول الموائد ، سميث يحاول جاهدا ان يفهمنى ما يقوله ثم يضحك وانا ناظر اليه بغباء ، وابراهيم يترجم لى ما يقوله ولكن ايمرسون يشير عليه بالصمت .

وضحكت من قلبى وصحت :

ـ يا لها من حياة جميلة .



عشرة أيام مع البعثة ، انتقل معهم من هضبة لجبل ، ومن واحة الي واد قديم مهجور هم يبحثون عن الحشرة ، وانا ابحث عن حقيقة نفسى مندمجا معهم تارة ، بعيدا عنهم تارة اخرى ، أحيانا اهتم بما يهتمون به وانفعل بما يحسون به واحيانا اخرى أجلس كتمثال ترك فوق جبل مهجور .

وتعلمت الكثير ورايت الكثير ، تعلمت الصبر ، فهم لا يبالون مهما كانت العقبات فى سبيل بحثهم الطويل الشاق حول حشره ضئيله تعيش على ارجل الماعز او فوق أحجار الآبار القديمه المهجورة أو على ثمرات البلح المتساقطه ، متنقلة فى قطيع باحثة عن مكان لتجمعها .

وابتعدنا عن الواحات متجهين جنوبا الى واد يقع فى الطريق الى امتداد النوبه فى الجنوب ، وبدات كميات المياه تقل ، ولكن السيارات تندفع على طريق وعر لا يصلح الا لسير الجمال ، وحينما نتوقف ونقيم الخيام لنعسكر ، ويمتد بنا السهر الى وقت متاخر من الليل أنظر حولى واتذكر القاهرة واسيوط وقريتى .. اشعر بالحنين للعوده .. والنار تذبل ، وتسكن الحركه ويصبح المكان موحشا قفرا يرتفع حول ظلال الخوف ورقصات الرعب وكأن غولا ينقض على فأنكمش فى خيمتى ، واظل متيقظا الى كل حركة حتى يغلبنى النوم .

وفى احد الأيام ، وكنا نعسكر فى مكان اطلقنا عليه (قاع الرياح) فهو يشبه بحيرة وسط هضاب صخرية مرتفعة تحيط به من كل جانب فى شكل دائرة ، وتهب الرياح ليل نهار ، فوق الهضاب لتهوى الى البحيرة الجيرية وتلف وتدور وسطها حاملة ذرات الرمال وشظايا الأحجار الجيرية وبعض الحشرات المتطايرة . وكان جانب من هذه الحافة منخفض الى حد ما ــ وعلى مسافة منه بعض الأحجار تبدو كالأشجار الجرداء .. فاردت الاستغراق فى مجال البحث كما يفعلون .. فاصطحبت مبروك ، الدليل العجوز للبعثة واخذت بعض الأدوات التى دائما يستعملها ابراهيم فى جولاته ، كما اخذ عم مبروك بندقيته ، وسرنا صوب الأحجار المرتفعة وانا اغذ السير وكأننى ذاهب لاكتشاف قارة جديدة ومبروك سعيد بحماسى مندفعا بجانبى ، وطال بنا الطريق وكنت اخاله على مسافة قريبة من المعسكر ، حتى وصلنا وقد اشتد بى الارهاق وشعرت أن صدرى يضيق وانفاسى تخرج منى بصعوبة ، ونظرت الى مبروك وصحت وانا ارتمى على أول حجر يصلح للجلوس :

ــ شىء متعب ..

فضحك الرجل ، ونعت شباب هذه الأيام بالرفاهية ، وعدم القدرة على التحمل ، ثم جذبنى بقوة ليقودنى الى اعلى قمة الهضبة .

واحسست كأننى اعيش حقيقة فى عالم مسحور ، ورحت الهث من السعادة وانبش بيدى فى الأحجار ، وجدت أن الأحجار المرتفعة بالفعل تشبه الى حد ما شجرات تقف فى صمت وكبرياء ، ولم أصدق عينى حينما وجدت ما يشبه الاناء المستدير ولكنه غير متكامل ومحطم من جانبه .. ثم عدة عظام متحجرة ، والقيت

نظرة على المكان وخيل الى ان مدينة ما كانت هنا وأن حياة سعيدة كانت تدب فى هذه المنطقة . جحور عميقة ، بعض المستطيلات من الأحجار . ولم اكف عن الحديث كنت اتباهى باكتشافى لمبروك ولكنه كان يسخر منى ويقول ان هذه المناطق لا يسكنها الا الجان : وجمعت ما وجدته وما أقدر على حمله وبدأنا نهبط من جديد .

وبفرحة الباحث المجد حملت ما عدت به وذهبت الى ابراهيم وكان منهمكا فى عمله وما ان رآنى حتى صاح غاضبا :

— ارجوك ، لا تغادر منطقة المعسكر حتى لا تسبب لى مشاكل .

ولكنى تغاضيت عن غضبه واخذت اريه ما جمعت وهو يقلب فيها بين يديه حتى فحصها جميعا ثم جمعها مرة أخرى ، فصحت به وكأننى أبين له مدى اهمية كشفى :

— أشجار وكائنات متحجرة ..

فابتسم فى هدوء وهو يقول :

— أنا أعلم ذلك ..

وحرت فيما اقوله وشعرت بشىء من الاهانة ورغبت فى أن اقول له شيئا يؤلمه ، ولكنى لم أفعل وآثرت الصمت حتى قال :

— هذه المنطقة كانت مملوءة بكل انواع الحيوانات بل دلت الأبحاث على أن الغابات وشدة الأمطار كانت أهم مميزات هذه المنطقة ، فوجود الأشجار المتحجرة شىء طبيعى .

وأحسست أن اكتشافى غير هام ، بل ولم اكتشف شيئا على الاطلاق وجلست فى حزن ، ونظر ابراهيم الى وقال ضاحكا :

ـ المهم ان نثبت ان الانسان الأول عاش هنا . فاذا اخذنا هذه العظام المتحجرة وأجرينا عليها الدراسات وعلمنا عمرها تماما اصبح فى مقدورنا اثبات ذلك .

ثم قال وهو يستدير :

ـ وبذلك يسجلون لك كشفا علميا هاما .

وتركت ابراهيم وخرجت لأجلس فى طرف المعسكر واحساسى بالخيبـة يملأنى ، وسرى سؤال فى ذهنى ، هل الجنيـات ام الانسان الأول صاحب الأسبقية فى هذه المنطقة ؟ حتى جاء عم مبروك وجلس بجوارى وقدم لى كوبا من الشاى ، ولم يكن فى البعثة من يفهم فى شرب الشاى العربى مثلنا ، وربما يكون ذلك المرجع فى زيادة ارتبـاطى بعم مبروك ، ولم يكن له عمل مثلى حينما يتوقف المعسكر . وجلس الرجل بجوارى نرتشف الشاى فى متعة ، انظر حولى فلا اجد الا احجارا صامتة بعضها يشبه آلهة اليونان ، وبعضها يبدو وكأنه تمثال امرأة باكية ، ثم مساحات خاوية ، واندفع سؤال على لسانى لعم مبروك :

ـ هل رأيت جنية من قبل يا عم مبروك ؟

وصمت الرجل برهة وتمتم ببعض الكلمات ، ثم سألنى :

ـ مزيدا من الشاى ؟

ـ لو تكرمت ..

وملأ اكواب الشاى الساخن مرة اخرى ، وآثرت الصمت ورحت اتسلى بارتشاف الشاى ، ناظرا تارة الى فقاقيع الهواء على حافة الكوب ، وتارة الى ابريق الشاى وقد وقف برشاقة تشبه رشاقة الديك الرومى وعظمته ، وفجأة بدأ مبروك يقص :

— كنت فى شبابى اعمل مع تاجر للجمال والبقر السودانى ، اذهب معه الى السودان فنمكث اياما حتى نجهز قافلة ونتزود ثم نعود ، نأخذ المراكب حتى نصل أول درب الأربعين ونسير فيه حتى مدينة اسيوط ، وهناك نستريح بعض الأيام لنواصل السير مرة أخرى حتى امبابة بالقرب من القاهرة ، حيث نبيع الماشية لنعود مرة اخرى .

وكانت هذه الرحلات تستهوينى وتخلب لبى ، فلا تفوتنى قافلة منها سواء فى الذهاب أو العودة .

وفى احدى الرحلات ، مرض الشيخ صابر صاحب القافلة ، واضطررنا لتركه فى احد النجوع ، واخذت انا مكانه وتزعمت القافلة اسير بها فى الطريق بعض النهار وبعض الليل ونستريح جزءا من النهار وجزءا من الليل .. كما اعتدنا من قبل ، وفى احدى الليالى ، وبينما نحن جلوس اذا بصفير رفيع صادر من مكان ما ، ثم تكرر عدة مرات ، فانتبهنا جيدا محـــاولين تبين مصدر الصوت ولكن بدون فائدة ، وتكرر الصفير مرة اخرى . فرقد أحدنا واضعا اذنه على الأرض ينصت عله يهتدى الى مصدره ولكنه فشل رغم تكرار الصفير الذى بدأ يعلو حتى تنبهت الجمال ووقفت فى ذعر ثم ركضت بأقصى سرعتها فى خوف محموم ، متفرقة بين الهضاب وارتفع الى السماء لسان من الدخان ، وجرى بعض الرجال فى محاولة للهرب أو الاختباء واختلط الصـفير بصياح الرجال برغاء الجمال ، وحرت كيف اتصرف والجمـال قد تفرقت والرجال يهربون ، وانا خائف على نفسى وعلى القافلة التى فى امانتى .

وسرت فى الظلام اتخبط مناديا بصوت مرتعش على الرجال

ولكن لا مجيب ، ولا اشم رائحة الجمال ولا اسمع لها صوتا ، والوقت يمضى ، ماذا افعل ؟

وفجاه رايت نورا اخضر ، وما لبث ان تحول هذا النور الى فتاه جميله ، جمالا لا يوصف واقتربت منى ، وانا فى خوف شديد اود ان اجرى او اصيح ولكنى غير قادر .. حتى وقفت بجوارى وقالت لى :

ـ لا تخف يا مبروك .. انا بنت عمك ..

وحاولت ان اقول لها شيئا ولكن فمي مغلق ، فليس لى ابنة عم ، وحتى لو كانت لى ابنة عم فكيف تاتى الى هنا ؟ وأسلمت امرى الى الله .. واقتربت منى اكثر وجذبتني من يدى وسرت معها لا اتكلم ، ولكن فى قلبى نوع من الراحة انظر اليها بجانب من عينى ، ورغبة ملحة فى نفسى ان المسها واتحسسها ، وكأنها علمت بما فى نفسى فقالت :

ـ سوف اسير معك حتى ادلك على مكان الجمال الشاردة واجمعها لك ، وفى الصباح ستجد كل رجالك وقافلتك .

وجلسنا على حافة حجر ، لا ادرى كم لبثنا هناك ، حتى لاحت تباشير الفجر فوقفت وهى تشير على قائلة :

ـ لا تخبر احدا عنى وسأراك فى الرحلة القادمة .

ثم اختفت مرة واحدة .. وطلع النهار ، فوجدت القافلة قد عادت كما عاد الرجال لنستأنف سيرنا مرة اخرى .

وفى كل رحلة فى هذه المنطقة وبعد منتصف الليل تأتى ابنة عمى فأذهب معها حتى نهاية الهضبة وامكث معها حتى قبيل مطلع

الفجر ، احيانا كانت تغنى واحيانا تحدثنى عن اشياء غريبة .. فلا اشعر بالوقت حتى تهب واقفة وتختفى فجاة كما جاءت فجاة.

وسكت عم مبروك واخذ يقلب نظره فى السماء ، وطال انتظارى لسماع باقى القصة ، فصحت قائلا :

— وماذا بعد يا عم مبروك ، اين هى الآن ؟ .

وطفرت دمعة من عينيه مسحها بسرعة وهو يتظاهر بالسرور ولكنى لمحت الأسى والحزن يكسو وجهه ، فأخذت اسرى عنه ، وأحضرت له شرابا منعشا ، وانا أثرثر بأى كلام ، حتى هدأت نفسه قليلا وصحبته حتى فراشه .

وذهبت الى خيمتى وانا افكر فيما قاله عم مبروك ولماذا تأثر وحزن هذا الحزن الشديد ؟

وآن لى أن أعود ، أعود الى عملى والى أحلامى ، الى أسيوط ، وتركت خلفى صديقى ابراهيم وعم مبروك يواصلان الرحلة بعد ان وصلنا الى اسوان، وآثرت انا ان اذهب شمالا لأعود ،بينما واصلت البعثة المسير الى الجنوب مخترقين طرقا وعرة علهم يحصلون على ما يريدون .

وماذا يريدون ؟ .

ماذا يريد عم مبروك ، وهو فى هذه المرحلة من العمر ؟ الم يكن من الواجب عليه أن يلزم داره فى هدوء وكفاه كثرة ترحاله وتجواله فى شبابه ؟ ولكن يبدو أنه يصر على السفر والتحمس له ، بل انه حزن حينما امر قائد البعثة بالتوجه الى اسوان ولم يزايله الحزن الا بعد أن عرف انهم لن يمكثوا بها الا ما يكفى من الوقت ليتزودوا لبقية الرحلة ، ولمحت بريق السعادة يومض فى عينيه ويهز الاخاديد السمراء فى جبينه وهو يبلغنى بلهجته الخاصة خبر سفرهم الى النوبة مخترقينها حتى السودان ، ثم صفق طربا وهو يقول :

ـ والله زمان !! ارض النوبة بتنادى عليك يا مبروك ..

ويخيل الى ، حينما استعدت هذه الصورة فى ذاكرتى وانا

فى القطار عائدا الى اسيوط ان مبروك يبحث عن شيء فقده ، وانه ربما يجده مرة ثانية فى شعاب الجبل أو باطن الوادى .

وما الذى فقده عم مبروك الا هذه ابنة العم ، سواء كانت حقيقية ام وهما ام مجرد حلم يظل يداعبه فى شبابه ، فلما ولى الشباب وفرصة تحقيق الحلم ، ظل يبحث عن شبابه فى ثنايا الحلم وروايته .. وليس اصراره على الذهاب مع البعثة وتحمله مشقة التنقل بين الطرق الوعرة الا بحثا عن جنية (درب الأربعين) — ولعله يكون اكثر منى شجاعة واوفر عقلا لانه ذهب يبحث عن حلمه وعن نفسسه من خلال بحثه عن الحلم ، ولم يجلس ليحلم مثلى فقط ولكنه ذهب ليرى خياله منعكسا على سطح الرمال الملتهبة .

والقطار يحملنى الى اسيوط مرة اخرى ، مندفعا الى الشمال وكأنه موظف فرح بنقله من أقاصى الصعيد الى العاصمة .

الدنيا حر والتراب يندفـع من خلال فتحات مجهولة خـلال النافذة ، والرجل الجالس امامى يغط فى النوم ويصدر صفيرا منتظما ، يهتز شاربه مع اهتزاز بطنه الســمين ، واربعة آخرون جلسوا خلفى يتناقشون ، هذا يؤيد ضرورة تسجيل العقد معللا ذلك بأن الدنيا لم يعد لها امان . وآخـر يصر على ضرورة وضع خطة ، وبدلا من شراء فدان واحد . يمكن شراء الأربعة والنقاش ، رغم انه متشعب الآراء وفى أمور مالية معقدة الا ان كل جانب يؤيد وجهة نظره بعدد من الأمثال الشـعبية او الحكم المأثورة والبعض يزيد فيؤكدها بالوقائع التى حدثت بالفعل . وحينما تلتحم المناقشة وانت لا دخل لك بها ، وتجد نفسك مرغما على سماعها ، فانها تصبح نوعا من العذاب لا سبيل للهروب منه .

وعلى المقاعد التى امامى يجلس ثلاثة ، احدهم يبدو من خلال حديثه أنه مفتش زراعى ، والآخران يبدو عليهما بأنهما تاجران أو

ربما شيء آخر له علاقة بالتجارة ، والحديث بينهم يعلو أحيانا على حديث الآخرين ــ فأتبين أن المفتش يحكي قلة حظه وسوء طالعه ــ من الغبن الواقع عليــه ، والآخران يؤيدان أقواله ويعــددان قلة حيلتهما فى التحايل على الرزق وتثور ثائرتى ساخطــا راغبا فى خنقهم ولكنى لا اتحرك واترك تعليقاتهم تدخل رأسى وتنفجر هناك .

وبجوارى شاب وزميله ، أعتقد انهما مدرسان ، راحا بدون حرج او مجرد احترام لبقية الركاب يتحدثان عن مغامراتهما النسائية فى بلاد الصعيد، وتعلو ضحكاتهما ويصفقان طربا كلما قص أحدهما واقعة حدثت له .

الضجيج والأحاديث المختلطة والمتصاعده من بقية العربة والتراب والحر ، وعويل طفل وغناء قبيح ، وارض العربة قذرة مبتلة ، ومنظر الأجولة والقاطف والسلال المنتفخة ، ونداء بائع الشاى ، كل هذا جعل رحلتى الى أسيوط شيئا مؤلما .

وقابلتنى اسيوط ببرود ، لا حركة ولا شيء جديد ، نفس الرجل الواقف فى ميدان المحطة يبيع السميط والبيض والطعمية ، عربات الأجرة الكالحة اللون ، عربات الحنطور وحصان تجمع حوله الذباب، وراديو المقهى المقابل صوته المرتفع ، ومجموعة فوانيس الاضاءة الحديثة وسط الميدان وعربات النقل الضخمة تسد الطريق دون حركة ، وثلاث فتيات فى الزى المدرسى واحد الصبية يجذب منى الحقيبة

ــ أوصلك يا أستاذ ؟

ــ طيب ..

وخطف الصبى الحقيبة واندفع أمامى حتى ابتعد ، فأسرعت خلفه حتى لحقت به ــ وكنا قد عبرنا الميدان فوقف يسألنى :

— لوكاندة يا استاذ ؟

لم يصدمنى برود اسيوط فى استقبالها بقدر ما صدمتنى كلمات هذا الصبى ، فقد أشعرتنى بالغربة ، واحسست بأننى مجرد مسافر يقضى ليلة ويعود ، وتنبهت الى صوت الصبى وهو يعيد الى السؤال فصحت فيه :

— شارع فريال ..

— نركب ؟

— لاداعى ..

مرة اخرى سار الصبى امامى حاملا الحقيبة ولكن بسرعة اقل، وسرت خلفه وانا افكر فيما اجده فى المنزل بعدما انقطع ما بينى وبينهم طوال الأيام التى سافرت فيها . هل اجد خطاباً من امى؟ وهل سافر طلعت فى بعثة ؟ وفاطمة ، هل سالت عنى ، هل هى تجلس الآن فى شرفتها تنتظر عودتى ، ولكنى لم اخبرها بموعد عودتى كما لم اخبرها بسفرى ، وشعرت بالشوق الى رؤيتها والحنين الى احضانها ، وطافت بى ذكرى زياراتها لى ، وهل هى تحس بهذا الشوق مثلى ، ربما تثور لأننى سافرت فجأة ولم اخبرها فكيف اطيب خاطرها ؟

هديه .. هذا هو المهم .ولكنى لم اذهب الى مكان يشترى منه شيء ، الصحراء لايشترى منها ولكنها تاخذ منك العرق والدموع واحيانا تأخذ كل شيء ، الروح والجسد ، وربما باعت لك ،احيانا .. سرا ثمينا او املا او حلما .

وصادفت محلا فى الطريق ، سرعان مادلفت اليه وانتقيت بسرعة شيئا يصلح ودسسته فى جيبى وعدت اواصل السير .

ولكن بعد أن استقرت الهدية التى اشتريتها فى جيبى ،تنبهت الى نفسى ، وراعنى الشوق لرؤية فاطمة والحرص على عدم اغضابها

وارضائها بالهدية ، احسست انني تسرعت ، وانني انزلق الى بحر عميق لا اجيد السـباحة فيه ، وحاولت تقليب الأمر على مختلف جوانبه ، الذى بينى وبين فاطمة شئ بعيد عن الحب ، شئ أوجده الفراغ والشباب وخيالات حب فى عقول محبـوسة ، والسير فيه مدعاة للوقوع فى براثن غول لا اقدر عليه . ولكن الرغبة الجامحة فى رؤيتهـا والتلهف لسماع صـوتها والحنين لأحضانها ، اليست حبا ؟ وهى .. ايمكن ان تكون هى الأخـرى فى حلم أم انها تحبنى حقيقة ؟ .

ـ على الشـمال يا أستاذ ..

ـ حاضر ..

وقف الصبى ينظـر الى مبتسما بعد ان وضع الحقيبـة على الأرض واضعا يديه وسطه ، ولمحت فى نظراته بعض الخبث فصحت فيـه مهددا :

ـ لن اعطيك اجرا اذا لم توصلنى حتى باب المنزل .

فحمل الصبى الحقيبة مرة اخرى متأففا وهو يقول :

ـ ونمرة البيت ..؟

ـ ٣٢ ..

ـ حاضر .. اتفضل ..

وحينما اشرفت على المنزل ، انتشيت فى فرحة ، وطيف فاطمة وحرارة جسدها بين احضانى فى الصباح تجعلنى اسرع الخطى واقفز السلالم فى نشاط وكأننى اتعجل رؤية فاطمة .

وفتح لى طلعت البـاب ورحب بى فى فتور لم أكن اتوقعه ، ذهبت الى حجرتى ووضعت حقيبتى وعدت بسرعة لأجده جالسا يفحص بعض أوراقه ، وبادرته بأسئلتى :

— فيــه جوابات من البلد ؟

— لا ..

— فيه ناس سألوا عنى ؟

— لا ..

— أنت مشغول ؟

— جــدا ..

— تصبح على خير ..

— وانت من اهله ..

— أى خدمة قبل ما انام ؟

— لا ..

تركته ، غاضبا ، لأعود الى حجرتى ، وأنا قلق لا أستطيع النوم رغم ارهاقى الشديد وحاجتى الى الراحة ، وزاد فى قلقى ذلك الوجوم على وجوه زملائى فى المسكن ، يتحركون فى صمت ينظرون الى فى عتاب أو لوم لا أدرى سببه ، احساس ما فى نفسى بأن شيئا هائلا قد حدث أثناء غيابى ، ولا أجرؤ على السؤال المباشر عنه ، وحاولت أن أتخيل ما يمكن أن يحدث ولكنى فشلت وحاولت النوم متناسيا الأمر كله ، ولكن ساورتنى الشكوك وانهكت اعصابى كثرة التفكير فى أشياء محزنة ومؤسفة ، وكلما أغمضت عينى ، أشعر وكأن الموت يقترب منى فأصحو خائفا وأظل متيقظا وكل حركة يفسرها خيالى بشىء مخيف .. ذئاب مفترسة بأنياب طويلة تعوى فى جوع وحشى مقتربة من أمى التى تصرخ فى خوف ، وأنا مقيد فى فراشى لا أقدر على الحركة ، وثعبان هائل يتلوى حول قدمى وأحس ببرودة جسده ، ثم أعاصير ورياح ونيران تشتعل فى كل شىء وطلقات رصاص وعيون باردة وأيدى ممدودة وأشجار لهـا

ايدى بشر ، عشرات من الأيدى المدودة ، وظلام قبر يبتلع جسدا ابيض ، وخيالات اخرى كثيرة تناثرت حولى التشبث فى فراشى واجذب ارادتى لأصحو وأقاوم ما وسعنى ذلك ــ اقاوم شيئا فوق طاقتى وارادة التحرر من قيود وهمية تثقل على صدرى صارخا .

الرحمة ، الرحمة يارينا ، ولكن لا ، الدنيا لاترحم بل تهصرنا ثم تضحك علينا ، الدنيا تتسلى ، وتضحك علينا ، تمتصنا لتعيش هى ، اللعنة عليك يادنيا ، ولكن .. لا .. فالدنيا لاتستحق أيضا اللعنة ، انها تستحق ان نقاومها ، أن نرغمها ، أن نقول لها : لاوألف مرة لا ، لن تأخذى منا بقدر ما نود أن نعطيك اياه .

وكان الصباح ، صحوت تعبا مرهقا ارتدى ملابسى فى لهفة للخروج ربما اصادف فاطمة او اتلقى منها تحية او مجـرد اشـارة تبعث الدفء فى قلبى ، اسرعت بالخروج ، هربا من شىء ما اشعر به ، وهبطت السلالم مترقبا ظهور فاطمة وتلكأت أمام باب شقتها علها تخرج ، راودنى التفكير فى العودة الى المنزل وانتظارها ، ولكنى خشيت الرجوع وترددت كما أن التزام الذهاب الى العمـل بعد طول الغياب يضطرنى الاسراع الى هناك ، والشوارع دبت فيهـا الحياة ، طلاب يتجمعون حول عربة فول ، فتيـات فى قوافل ذاهبات الى مدارسهن ، بائع الجرائد يعلن عن قيام ثورة فى جنوب افريقيا وجريمة قتل فى دمنهور .. الشارع يدب فى حيوية .

رأيت عربة مغاورى الذى يصلح الاقـلام أمام مبنى الادارة وبادرنى بالتحية فابتسمت فى وجهه ، ارتقيت السلم فى تكاسل حتى وصلت الى الطابق الأول ، حيث مكان عملى ، دخلت الصالة وهى طويلة على جانبيها مكاتب الموظفين تفصلهم جدران زجاجيـة شعرت أن أعين الزملاء تراقبنى واضطربت فى مشيتى حتى وصلت الى مكتب زميل لى كنت أحب الجلوس معه ، وجلست وسرعان ماالتف باقى الزملاء يسلمون ويحيون ويسألون عن غيابى ويستفسرون عن سببه وشعرت ببعض الراحة ، فقد وجدت اهتماما لم اجده مع زملاء المسكن . وجلست أتحدث معهم حول الرحلة التى قمت بها ، حتى جاء من يبلغنى برغبة المدير فى رؤيتى ودهشت لأن هذه

اول مرة يستدعيني فيها منذ نقلت الى هنا .. وشعرت بالألم فى مؤخرة راسى واحسست بالخوف وداهمنى وهم بأنهم سـوف يطردوننى من العمل ، وانني ربما اكون قد ارتكبت خطأ ما ، ولكنى تراجعت عن هذا التفكير ، فلم اقم بأى عمل ولم يسند الى اىعمل حتى اكون عرضة للخطأ ، كما أن غيابى كان بناء على اجازة مستحقة لى ، وذهبت لمقابلته اخيرا .

واستقبلنى المدير وهو يبتسم ثم اخذ يسألنى عن سنى وخبرتى وبلدى ومؤهلى العلمى وانا اجيبه بحرص ودقة محاولا الظهـور بمظهر يرضيه متمنياعملا يتناسب مع كل هذه الأسئلة ، واخيرا ابتسم الرجل ، وكان بدينا دائم الحـركة وهو يضع يديه حـول صـدره وقال :

ـ يبدو انك موظف مثقف ، وعلى هذا فسـوف يكون عملك متناسبا مع ثقافتك ..

فأحنيت راسى فى تواضع او متظاهرا بالتواضع وهمست :

ـ العفو يا افندم ..

ومرة اخرى فرد ذراعيه وراح يعبث بأوراق على مكتبـه ، واسترعى انتباهى غلظة اصابعه بدرجة كبيرة وخاتم رفيع مغروز حول احد اصابعه ، وابتسمت . .

ـ فى الأول سوف نسند اليك عملية بسيطة ، وبعد فترة قليلة يسند اليك عمل أهم .

واجبت وما تزال اصابعه تثير خيالى :

ـ حاضر يا افندم ..

ـ وحسن افندى سيتولى تدريبك على العمل الجديد .

وكان هذا ايذانا بانتهاء المقابلة فأشار على بالانصراف .. سحبت افكارى وذهبت الى مكتب حسن افندى .

بحجرة بها خمسة مكاتب وخلفها دواليب مفتوحة، ونافذة يدخل منها مربع من أشعة الشمس وثلاثة شبان فى مجادلة عنيفة .. وتقدمت من حسن أفندى الذى رحب بى واجلسنى بجواره ، وفى خلال ما يقرب من ساعة أخذ يشرح لى مهمتى فى مكتبه واخيرا أشار الى أحد المكاتب محددا لى مكانى ـ وكان حسن أفنـــدى يستعمل كلمات رنانة كبيرة صعب على فهمها بسهولة ، أخيرا نظر الى ساعته وقال :

ـ العمل سوف يعطيك خبرة أكثر .

ـ انشاء الله ..

ـ غدا تأتى الى هنا وتمارس عملك الجديد .

ـ حاضر ..

الثورة تنبع من القلب .. القلب الشاب الشجاع وليست من أى قلب ، ولهذا تقل الثورات لأن القلوب الشابة قليلة .

ـ ولكننا نحن أيضا شباب .

ـ لا .. انتم جالسون حول الموائد بعضكم يشرب خمراوبعضكم يشرب حلما ، والآخرون ينامون ولا يسمعون ..

ـ والسحابة الخضراء تمر ولا نراها ..

ـ لأنكم لا تنظـرون .

ـ والمصانع تنمو وتطرح قناديل ومداخن ، ولا نشمها . .

ـ لأنكم تقبعون داخل ادراج الخشب وتضعون حـول أنوفكم ملفات قديمة .

ـ العالم كله يتعلم ويسير ويأتى الينا ، ويتعجبون ، واضعين

ايديهم على اوراقهم يسجلون . البلد تكبر تنمو تصرخ .. أسمعوا صوتى .. ولكننا لانسمع ..!!

ــ انتم تتدحرجون على التجيل ، وتنقسمون الى ابيض واحمر .. ثم تتناجرون حول اشـياء لا معنى لها ، وتتصايحون حتى يطغى صراخكم على صياح بلدى .

ــ نحن نســجل ..

ــ من فضـلك .

ــ نعم ..

ــ اريد ان تستلم منى هذه الخطابات ، عشرة ، مرفقات عشرة بتاريخ اليوم ، وقع من فضلك .

ــ حاضر ..

ــ شـكرا ..

ونظرت الى الأوراق ، عبارة عن خطابات واردة من هيئات ، حسنا الخطوة الأولى التوقيع باستلامها ، ولكن الثانية ،نعم تذكرت اعطاء كل منها رقما ، نبدأ الآن فى الترقيم ولكن ما هذا ..؟

ــ من افضـلك ..!

ــ نعـم ..

ــ اريد ان تستلم هذه ، سبعة ، مرفقات لاشىء ، بتاريخ اليوم وقع من افضلك ..

ــ حاضر ..

ــ شـكرا ..

مرة اخرى اوراق ، الخطوة الاولى التوقيع باستلامها والثانية الترقيم .. واحد ، اثنين ، ثلاثة ، اربعة ، .. وصرخ صوت :

ـــ العمل يجب أن يتناسب مع الثقافة والمقدرة الذاتية ..ولكن صوتا آخر صاح بغضب :

ـــ أكتب الأرقام جيدا ، انت مثقف لا تخطىء .

ـــ حاضر .

سيدى هل يمكن ان اذهب معك الى جزيرة الأرقام ، لا تقل لا يمكننى ان أصعد بسرعة انا ارى السلالم كل يوم ، ويمكننى ان اتسلقها ، جزيرة الأرقام تحوم حول ثلاث من الجزر الذهبية حول محيط من السماء الصافية ، يجلس فوق كل جزيرة طفل اشقر فى يده قيثارة يعزف عليها وينشد شعرا رائعا ..

ـــ لا ..

ولماذا ؟ فوق المحيط جزر اخرى ، اعطنى واحدة منها ، لا تقل لا هذه المرة ، أصابع المدير غليظة وسوف تموت لأن الخاتم الأصفر يضيق ، ويضيق اكثر كلما مرت الأيام حتى ياتى اليوم الذى تموت فيه الأصابع وبعدها يصبح المدير بغير اصابع .. مسكين ..

ـــ من ؟

ـــ انا ..

ـــ ارجوك وقع ودعنى انصرف .

ـــ حاضر ..

ـــ ثلاثة ، ومرفقات مائة وعشرون ، ارجوك راجعها جيدا ..

ـــ حاضر ..

ـــ مسئولية .. لا تغضب

ـــ لا .. انا لا اغضب .

ـ أنت مثقف .

ـ شكرا .

الأرقام مهمة جدا ، واحيانا يكون لها رنين ، واحيانا أخـــرى تغنى ، بل وكثيرا ما تموت وهى تغنى تحت وطأة قلم احمر غبى فى اصابع غليظة .

يمكننى ان اضع اصابعى فى اذنى ولا اسمعك تغنى لأن صوتك قبيح ، والسحاب يتراكم واصحاب الملابس الحمراء غاضبون ، واصحاب الملابس البيضاء يضحكون ، وبعد برهة يتغير الحـــال فيبكى الضاحكون ويضحك الباكون ، واحيانا الألوان تموت أيضا تحت الأقدام وتنغرس بين العشب والجماهير تصرخ .. تدوسها وتصرخ .. مندفعة ، هاتفة ، صائحة ، مصفقة ، واحدهم يهتف:

ـ ثلاثة لواحد ، ثلاثة لواحد ..

ـ نعم .

ـ ارجوك ، استلم ، ثلاثة ، مرفقات واحد ، وقع من فضلك.

ـ حاضر ..

ـ التـــاريخ .

ـ حاضر ..

ولكن فى المرة القادمة سأقول لا .. وسأقذف كل الأرقام فى قاع بئر ، وبعدها لن يجدوا ارقاما ويتحيرون ويسألون اين الارقام؟ ويطول بحثهم عنها حتى يتعبوا .. وبعدها يجلسون فوق الجدران ويضحكون وهم يقولون فى سعادة :

ـ الا تعلم فقد ذهبت الأرقام ولم تعـــد ! !

- ١٣ -

آسف يا أمي ، ولن ينفعك أسفي بشيء ، ولكنها كلمة سخيفة زرعوها في رؤوسنا ونحن صغار حينما تخطيء يجب أن تقول آسف ، ولكن لماذا اخطات ولأى سبب وكيف ؟ غير مهم .. المهم هو الأسف : أن تعلن انك آسف ..

فانا آسف يا أمي ، آسف لأنني تركت قريتي ، تركت حقلك الصغير شريحة الأرض الخضراء التي تعبرها الفيوم في لحظة يسيرة من الزمن ، وتركتك تغوصين في طينها حتى تنبت شيئا يصلح للبيع ، وبثمن وجودك في الطين طوال حياتك ، دخلت المدرسة وسرت عبر الأراضي الخضراء كلها حتى المدينة حتى المدرسة لأنفق ثمن ما أنتجه الطين ، وطوال وجودي في المدرسة ، وطوال وجودك في الطين تعلمت أشياء كثيرة كانوا يلقونها في عقولنا ، وكلها أشياء لا رابط بينها وبين شريحة الأرض الصغيرة . وتهب المظاهرات تطلب الحرية ، ويسير الطلبة في شوارع المدينة هاتفين صارخين ، وانزوى وزميلى في ركن من الشارع حتى تبتعد المظاهرة لنذهب وننتظر القطار العائد الى قريتنا ، لأننا وافدون من الخوف ، الخوف من الضياع ، من الغوص في الطين . وتغلق المدرسة أياما لنعيش في القرية لا عمل لنا .. لانستطيع أن نفعل مثل ما يفعله الآخرون في القرية حيث يعملون في الحقول ، يغوصون في الوحل والطمى لأننا « أفندية » ولا نستطيع أن نفعل مثل ما يفعله « الأفندية » لأننا أولاد الفلاحين .

نعيش فى القرية ايام الاجازات ، والأيام التى تغلق فيهـا المدرسة ونحن على الهامش ، مجرد رقم فقط . فى القرية لانصلح للعيش وفى المدينة لا نصلح كذلك . ماذا نفعل اذن ؟ نحلم وتنزوى الحقيقة وراء الحلم ولكنها لاتختفى ،. فقط كلما تضخم الحـلم تضخمت الحقيقة .

آسف يا أمى ، كم انت طيبة ، وكم اود ان افعل ما يفعـله الآخرون فى قريتى ، ولكنك رفضت .

وحينما ذهبت الى المدينة ، كنت افنديا مثل اهل المدينة ،ولكن فى اعماقى ، رجل القرية وحينما ذهبت الى الصحراء اعتدل الأمر شيئا ما ولكنهم لم يتركونى . اتوا بى مرة اخرى الى المدينة .

واصوات مختلطة فى الشقة ، أناس غرباء لم أرهم من قبـل، جلست ودارت عينى حولهم متلمسا طريقا للمعرفة . درت أبحث عن طلعت ولكنه جلس صامتا ، ثم تحدثوا الى فى ادب ، وطلبوا منى ان اذهب فى المساء لمقابلة الست لبيبة فى منزلها الجديد عـلى الناصية . وتركونى ومضوا .

استدرت الى طلعت وكان ينوى التسلل الى الخارج ، امسكت به ، والظنون تتسلل الى عقلى ، ماذا فى الأمر ، وما الذى تريده الست لبيبة ام فاطمة ومتى انتقلوا الى منزل جديد ؟ الحقيقة مهما كانت قبيحة يجب أن أراها .

ــ طلعت ؟

ــ اهدأ ، واولا ، يجب ان تطلب منهم أن ينقلوك الى مكان آخر

ــ لماذا ؟

ــ حاولت ان أخفى عنك الأمر ، ولكن يبدو ..

ــ ماذا ؟

ـ الأمر قد اصبح فى يدها الآن ..
ـ من ؟
ـ أم فاطمة .. حبيبتك أو بالمعنى الواضح ..
ـ تـكلم ..
ـ لا ، لاشيء ، المهم الآن أن علاقتك بفاطمة قد علمت بها امها ومن يومها وانتقلت الأسرة كلها الى منزل جديد .
ـ وانا ..
ـ اما أن تتزوج بالفتاة أو ترحل فورا ..
ـ ولكن هذا ظلم !!
ـ فعـــلا ..
امى ..
الشبكة تسقط حول الصياد ، والقطة تقترب من فار المصيدة والذبيحة تدخل المذبح ماذا افعل ياطلعت ؟
ـ المواجهـــة ..
ـ لقد خانت العهد وروت لأمها كل شيء فى غيابى ، لم تنتظر حتى عودتى ، دفعت الى أمها بالحقيقة وبكت ، وانت .
ـ لم نكن نعلم .
ـ قولوا شيئا . .
ـ قلنـــا كثـــيرا ..
ـ وماذا قلتم ؟
ـ اعتذرنا لها ووعدناها باصلاح الخطأ .
وفى المساء ذهبت . كنت مشتاقا الى رؤية فاطمة ، ودفعنى الشوق الى الذهاب والمغامرة بمقابلة الأم تجذبنى أيضا ، ماذا تقول الست لبيبة ؟

المنزل جديد ، حديث البناء ، فى آخر الشارع قرب مسار القطار ، مكان باب لم يوضع ، سلالم حجرية ملطخة بالجير ، رائحة الشحم والزيت ورطوبة البناء الجديد ، باب الشقة مرتفع .. بيد مرتعشة وضعت اصبعى على الجرس ففتحت لى خادمة صغيرة ، ما ان رأتنى حتى رجعت مذعورة تنادى على سيدتها التى أسرعت بالحضور مهللة مرحبة ، الست لبيبة بدينة الى حد كبير وبيضاء ، جلست امامى ، وتتحدث معى برقة وتسألنى عن بلدتى وعائلتى ومرتبى ومدخراتى واسئلة اخرى كثيرة لا اذكرها ، ولكنها تكفى لتكوين صورة كاملة عنى ، ولم تحضر فاطمة ولم ألمح لها أثرا ، والوقت يمضى ، والأم تسأل وتروى بعض ذكرياتها عن المرحوم ، تفاصيل الخطوبة ، والزواج أيام زمان وأنا حائر ماذا أقول أو أفعل ، هل اودعها وانصرف ام انتظر ؟ وهى لم تشر الى موضوع فاطمة بشىء .. وبعد برهة صحبتنى لترينى الأشياء التى اشترتها من اجل فاطمة ، السجاجيد واطقم الشاى وادوات المائدة والمفارش ولا تتعب من قص التفاصيل .. هذه من معرض الوزارة وتلك من واردات أوربا .. أما هذه فقد اشتراها ابن أختها لفاطمة من ألمانيا ، واما هذه المفارش فهى من صنع فاطمة نفسها ، وانتهت المعروضات ونجلس مرة أخرى لترينى صور فاطمة وهى صغيرة أو وهى فى المدرسة .. ووقع بصرى على صورة حديثة لفاطمة وقد وضعت المساحيق وتزينت وبدت كأنها احدى عرائس المسرح الشعبى .. واضطررت للانصراف لتأخر الوقت ، ولكن كان معى دعوة للحضور على الغداء .

وحضرت على الغداء ، ثم مرة أخرى على العشاء .. وتكررت الزيارات وأنا لا أفهم لماذا أنساق وراء دعوات أم فاطمة ، ولا أقف موقفا حازما فى هذه المسألة ؟ وفى كل زيارة أو دعوة ترينى أم فاطمة شيئا جديدا يخص حياة ومستقبل فاطمة ، هذه القطع الذهبية التى سوف تتزين بها فى الفرح ، وتلك ملابسها ، وهذا

مبلغ مدخر فى البريد لزوم أولادها ، وفاطمة نفسها لا تتكلم حينما اذهب ، وبى رغبة اكيدة لرؤيتها والتحدث اليها ، اجدها جالسة صامتة ، تنطق فقط ببضع كلمات ردا على سؤال او تحية اوملاحظة من جانب امها .. اين فاطمة التى صعدت الى حجرتى رافضة كل تقاليد الأسر المحافظة فى الصعيد .. قاذفة بكل القيم التى تحرص عليها الفتاة فى الظاهر على الأقل ، مندفعة فى أحضانى لتجذب اليها رجولتى وتلهبها لترتوى ، أين فاطمة التى باحت لى بحبها رغم اننى لم افعل ؟ انها الآن مجرد فتاة خالية من الجمال والأنوثة تجلس بجوار امها ، واشعر بالقرف ، واحس بالخيبة .. واود ان أفر هاربا من هذا القيد ، لا ليست هذه عروستى التى احلم بها .. اين هى من جمال سالمة ؟ فتاة الصحراء الجميلة الرشيقة المندفعة فى أدب ، المرحة فى وقار ، لا ، ليست هى حلم أيامى ، اين هى من فتاتى فى القرية .. فرق واضح بين جمالها وجمال « كوثر » التى دفعت فى سبيلها بكل مدخراتى ومصروفى ثمنا لحجاب .. أين هى من جنيتى المسحورة التى تأتى الى فى ظلام الليل وتبتسم لى ، وتهدهد مهدى وتغنى وتناديني ، وتبث فى روح الانسان العاشق ، فاطمة انها ليست جميلة ولا ساحرة .. انها مجرد فتاة ابنة امراة بدينة تدبر لى شيئا ، وأمضغ طعامى فى حسرة ليتحول طعم الخبز الى طعم مر المذاق وحبات الأرز ، وصدر دجاجة ، وقطعة لحم وسكين بارد وأفعى تتسلل الى طبقى لتلتهم قطعة اللحم ، وأدوس بالسكين على رأس الأفعى .. آه .

ـ احذر .. لقد جرحت أصبعك .

وتقهقه السيدة البدينة ، ويهتز جسدها ، وتهبط يدها بورك الدجاجة وفمها يحاول الحفاظ على مافيه من بقايا طعام وتقول :

ـ الحب يشغل الفكر ..

واعود الى غرفتى فى ندم .

وفى احدى الامسيات ، ونفر قليل تجمع فى منزل الست لبيبة ، والخادم الصغيرة تروح وتجىء مهرولة وفى يدها اكواب الشراب ، وزغرودة من داخل المنزل ، وحديث يدور حول تقسيم الشوارع الجديدة ــ اعطونى خاتما وضعته فى اصبعى ، والخاتم يبرق ويحك جلد اصبعى .. واصابع فاطمة مرتعشة باردة رفيعا خاتمها يتموج فى يدها ، وضعت يدى فى جيبى .. وقالوا لى :

ــ مبروك ..

فسحبت يدى من جيبى وقلت :

ــ حاضر .

وفى الصباح ، اذهب الى مكتبى وهناك يتكلمون عن الزواج واحوال المعيشة ، واشعر فى حديثهم بشىء من الحســد يأكل كلماتهم ، على حظى الطيب لزواجى من أسرة كبيرة .. يملك افرادها بعض المناصب الهامة وبعض الارض ، واشياء اخرى تســندهم فى الحياة وتنفع بناتهم فى هذا الزمن . ويظل عزت زميلى فى المكتب يتحدث عن أسرة فاطمة ، حديث العارف ببواطن الامور ويقســم انهم عاشروه وعاملوه كأنه واحد منهم ولهذا فهو يعرف عنهم مالا يلمسه ولا يعرفه غيره من الناس حتى ولا الاقربون لهم . ثم يهمس لى بصوت خفيض ونظراته الضيقة تأكلنى :

ــ حظك من نار ..

وانصرف عنه لأعود الى عملى .. واوراق كثيرة اخذت ارقاما، واخرى فى طريقها لحمــل الارقام ثم المرور فى طابور طويل من الاجراءات ، ويبدو ان عملى مهم فلولا الرقم الذى تحمله الورقة ما استطاعت ان تلحق بهذا الطابور .. ان الرقم يعنى الحياة بالنسبة لها لتدور فى دورة لانهاية لها ، واحيانا تسقط بعض الاوراق شهيدة من كثرة الدوران ،تلف الورقة .. وتتناقلها الايدى وتتنازعها الملفات وتقلبها الأصابع، حتى تتآكل ويرق جسدها وتمرض لتسقط صرعى فى أحد الأدراج ، ويسرع أحد السعاة ويقفل الأدراج ، وتشــعر الورقة بالسجن يضيق فتصرخ .. النجدة .. النجاة .

— لماذا تأخرت يا حبيبتى ؟ اين انت ، لقد خلفت وعدك لى وتركتينى نهبا للألم والصداع ، الا يمكن ان تعودى ؟

— اين ؟

— جزيرة السبع بنات ، الزرع الأخضر ، ونســـمات الحب واغنيات الجنيات ..

— كل ما اطلبه اجده ؟

— كل الأمانى والأحلام يزرعونها فتنبت نبتا اخضر ، ويظـل النبت يرتفع حتى السماء ويقترب من سحابة الجنيات الأربع .

— وبعد ذلك ؟

— تعرف الجنيات أن فى الوادى شابا لم ترهبه الأحلام دخل المدينة على حصان احمر وفى يده مصباح ينشد ، نشيد الحب والسلام .

— لا سلام ولا كلام ..

— خـــير ..

— أين الأوراق يارجل ..

— الأوراق !

— نعم الأوراق التى وقعت باستلامها منذ اسبوع ؟

— هنا بالتأكيد .

— لقد تعبنا فى البحث عنها .. آسف ساخطر المدير .

لا .. لا .. ارجوك ،سوف ابحث مرة اخرى ، لا اريد مزيدا من المشاكل ، انها هنا بدون شك ، طالما انها اخذت رقما ، فلا بد وانها موجودة ، ولكن العمل كثير كما ترى ، انتظر قليلا .

أمى بعيدة هناك ، فى الأرض تدك الطين بقدميها لتصنع قوالب الطوب وتبنى بيتا جديداً فى انتظار طفلها المدلل .. المثقف الذى

ذهب الى المدينة ليتعلم ويعرف السر ويأخذ مالا ويعود ليعطى الأم ثمن الطين ، ويعطى القرية ثمن الانتظار ، ولكن الطفل ذهب الى المدينة وعرفت المدينة سره واكلته وهرسته فى تروسها ، فلا يعرف كيف يعود .. الا اذا تحول هو الآخر الى ترس .. ولكنه لايستطيع لأنهم فى القرية صنعوه من طين لين تعب من كثرة الانبات . نعم لا يســـتطيع .

ـ لا تســـتطيع !

ـ نعم ..

ـ اذا سأخبر المدير ، انها أوراق هامة .. وانت غير أمين على عملك ..

ـ ارجوك .. انتظر ..

ربما تنتظرنى أمى ، وربما لاتنتظر ، ولكن الأكيد اننى سأعود ولكن متى ، لا أعلم ؟ لأن التـــروس جائعة ودائما فى حاجة الى الالتهام . الا اذا أصابها الخلل ، او الملل حتى اذا اصـــابها ذلك فسأظل معلقا بينها حتى تدور ، وانتهى اليوم .

اقترب منى عزت ونحن نهبط السلالم وسألنى :

ـ ذاهب الى بيت ام فاطمة ؟

ـ لا ..

ـ سألوا عليك فى الصباح عندما كنت فى مكتب المدير .

ـ ربما اذهب فى المساء .

والشارع مزدحم وعزت لايتعب من الحديث ولا من الشراء ، نقف ليشترى برتقالا ، ثم يعجبه منظر فاكهة اخرى ، ثم يســمع ضجيجا حول بائع وبسرعة يعطينى ما اشتراه ليندس بين الواقفين وبعد برهة يخرج وفى يده شىء آخر اشتراه .

المنزل كما هو ، رائحة غير طيبة ، الحجرات رطبة ، الفوضى تشمل المكان ، والمطبخ ليس به ما يؤكل .. لماذا لا يتزوج الانسان طالما أن الزواج سيساعده فى تنظيم حياته ويبعد عنه شبح الجوع الى أشياء أخرى تنقصه .

وجلست جائعا ، أفكر فى فاطمة ، انها طيبة وهادئة ، وانا ليس لدى ما أفخر به ، وليس لى اقارب من ذوى المكانة ، وليس لدى المال لكى أختار وافاضل ، ثم انها تحبنى . ان كنت انا لا اشعر بالحب نحوها فيكفى انها تحس به نحوى .. وجمالها فى روحها، لايهم جمال الخلقة بقدر مايهم جمال الخلق ، ولكن الأخلاق أيضا امور نسبية ، الم تكن تصعد الى شقتى كل يوم ؟ من يرشدنى الى الصواب .. دون غرض ، من يصفعنى حتى أصحوا !.

ودفعنى القلق ، والرغبة فى تبين الحقيقة ، الى الذهاب الى الحقول .. وذهبت شارد اللب ، غارقا فى تفكير أجوف ، أمضغ أحلامى وذكرياتى ، أود أن أتحدث الى الانسان ، اقول له كل ما يخطر فى عقلى .

ووقفت بجوار جرار على جانب الجسر ، وشاب أسمر يصلح به شيئا ـ وترددت فى التحدث اليه ولكنه صاح بى مرحبا ، فدنوت منه أكثر واخذت اتفحص الجرار باهتمام ظاهرى ولكن دون اهتمام حقيقى ..

ولكن محرك الجرار دار بسرعة وفجاة فقفزت بسرعة مبتعدا فى خوف ، ونظرت ناحيته فوجدته مايزال يعبث بما فى داخل الجرار ولم يتحرك فخجلت من نفسى ورجعت أرقبه من جديد ، ثم استدار الرجل وسألنى :

ـ ناولنى المفتاح من فضلك .

واشار باصبعه الى الأرض .. ثم انحنى مرة اخرى داخل الجرار ونظرت حيث اشار فوجدت بعض الأدوات مما يستعمل في الصيانة وكانت لدى بعض الخبرة بها منذ ان كنت أعمل فى بعثة التنقيب ، فاسرعت وناولته ما طلب ، ولكنه رده بسرعة وهو يصيح :

ـ الفرنساوى من فضلك ..

وانحنيت غاضبا من لهجته الآمرة ، ولكنه صاح مرة اخرى ، قبل ان التقط المفتاح المطلوب :

ـ بسرعة ارجوك ..

حينما اردت مناولته المفتاح ، اشار بيده وهو مازال منحنيا وقال بلهجة سريعة بها نبرة خوف :

ـ اوقف الجرار .

وتحركت بسرعة الى حيث توجد لوحة ادارة الجرار ، ولا أدرى كيف اوقفت محرك الجرار لم افكر ، هبطت ثانية فوجدت دما يسيل من اصبعه ويقوم وهو يحاول ايقاف نزيف الدم

ـ شـــكرا ..

شعرت بشيء من الفخر ، واخذت اربط له اصبعه ، وجلست بجواره وقد احسست بنوع من التقارب ، واقسم الرجل ان يصنع شايا وهو يقول :

ـ لقد انقذت يدى من اصابة خطيرة ، لو لم توقف المحـــرك لضاعت يدى .

وفى خلال تناولنا للشاى ، تحدثنا عن أشياء كثيرة ، أسأله ويجيب وضحكاته تعلو مرة وتخجل مرة ، ويستعيذ بالله ويتحسس اصبعه وانا سعيد بلقائى معه استمع اليه باهتمام .

وتكررت زياراتى (لدسوقى) سائق الجرار ، الرجل الريفى الطيب الذى لاينسى مطلقا اننى انقذت يده من ضياع ، حينما افرغ

من طعامى اذهب الى الحقول وابحث عنه ، احيانا اجده جالسـا يستريح بجوار جراره واحيانا اخرى يجوب حقلا مقلبـا تربته ، سعيدا بصوت آلته وهى تهدر بقوة فى رواحها وغدوها .

وكم كنت سعيدا حينما ركبت بجواره اول مرة ، واخذ يدربنى على قيادة الوحش الضخم « فهد » كما يسميه ، ويشير بيـده، من هنا تنطلق روح الجرار فيهدر فى قوة مندفعا الى الأمام ، ومن هنا يمكن التحكم فى اتجاهه ، قلل طعامه فيقلل من سرعته ،«وفهد» لن يعصىَ لك امرا ، ان قلت يمينا فليكن كما ترغب ، وضحكت فهذه اول مرة اتعلم شيئا حقيقيا وعلى الطبيعة ، ذهبت الى المدرسـة ما يقرب من ثلاثة آلاف يوم وذهبت الى الجامعة نصف هذا العدد ولم اتعلم الا بالكلام فقط ، يقولون وانا احفظ كلامهم أو يكتبـون وانا اكرر ما يكتبونه ، وفى آخر العام يتوقف الأمر على الحظ ، فالسؤال لا يأتى فى كل الكلام ولكن فى جملة أو عدة جمل من هذا الكلام كله ، فان كان الحظ سعيدا استطعت الحفاظ فى ذاكرتى على هذه الجملة أو تلك الجمل وكتبتها ، كتب لى النجاح . وان ساء الحظ وخانتنى الذاكرة ولم تحتفظ بتلك الكلمات القليلة لكان على أن اعيد العام مرة أخرى ، والسبب الكلمات اللعينة التى لم تلتصق فى ذاكرتى وهربت منى .

وضحكت فسألنى دسوقى :

ـ خير انشاء الله ..

ـ خير يادسوقى . فى المدرسة وصفوا لنا الطائره ومناخ سيبيريا وأرجل الدجاج بالكلام فقط ، ويقولون أفرض أن لديك صـندوقا من التفاح به ثلاثون تفاحة واكلت ثلاثة واعطيت كل أخ من اخوتك الثلاثة ثلاثة فكم عدد التفاحات التى تبقت معك فى الصندوق .

ـ وكنت تعرف الاجابة ؟

— لا يادسـوقى .

— المسألة سهلة . فلماذا لاتعرف الاجابة .

— لانه لم يكن لدى تفاح .

— حقا .. لماذا يعقدون المسالة ؟ لماذا لايقولون افرض أن لديك جميزا أو ليمونا أو أى شيء مما نراه فى أرضنا ؟

وتوقف « فهد » وهبطنا من على ظهره ونحن نضحك ، ودرت دورة كاملة حوله أتحسسه فى اعجاب ، ثم ودعته وودعت دسوقى ورجعت .

وفوق السطح ، كانت النـاس تضحك ، ورجل ضخم الجثـة يقف على منصة عالية بعض الشىء يقلد الدجاجة وهى تضع البيضة، ثم يقلد الكلب الصغير ، وأخيرا راح يقلد القرد ، والنـاس تصفق طربا ٠٠ وتضحك ، لا ارى الا أفواها مفتوحة بشراسة ، بوحشية ٠٠ كما يضحك الانسـان البدائى الذى كان يضحك بقوة بعنف ويفتح فمه ليظهر ما فى داخل جوفه ٠٠

الرجل الضخم ما يزال يقلد الغوريلا ٠

وانوار ساطعة وأصوات وزغاريد ، وصهيل خيل ورائحة ورود ورجل صعد يغنى موالا حزينا عن الحب الذى ذهب والأيام الجميلة التى لن تعود وسلامات بالاشارة وبالأيدى تنادى :

ـ مبروك ٠٠

ورفع الرجل عقيرته وصاح بأعلى صوته مؤكدا أن الليلة ليلة فرح ، وصعد آخرون يسخرون ويسبون ويتضاربون والنـاس تضحك فى اصرار عجيب ، وبرودة تسرى الى من أسفل المقعـد ، ورعشة عنيفة تمسك بى ، ورغبة فى القىء ، وفتاة صغيرة ترقص والعيون تكاد تأكلها والأكف تصفق بعناد ثم أعلنت الست لبيبـة عن موعد العشاء ٠

ترك الناس ما هم فيه واستداروا حيث أشـارت السيدة ، بعضهم لم يستطع كبح جماح نفسه فهب مسرعا ٠٠ والبعض تباطأ

فى غير رغبة منه ، والمائدة تحمل أشياء كثيرة سوداء كالحة ٠٠ أو سوداء لامعة ٠٠ وأكوام من الأرز وغيرها من الخبز ، تلال من اللحوم، بقرة تصرخ تضرب بحافرها رافضة تقديم رقبتها للجلاد الذى لعق السكين بلسانه وضحك ٠٠ ثم صاح :

ـ تقدمى ٠٠

وجذبنى زميل لكى أتقــدم الصفوف وفى ذراعى ، كما تقضى التقاليد المتحضرة ، عروسى الجميلة فاطمة ، ودفعنى آخر ، ودفعتها مجموعة من الفتيات حتى وقفنا الى جوار المائدة ، وهناك أحسست أننى تحررت من نظرات الناس ، أخيرا وجدوا شيئا يتلهـــون به بعيدا عنى ٠٠ فمنذ دخولى السرادق المقام فوق السطح وأنا موضع أنظار الجميع ، يقلبون النظر بينى وبين فاطمة وعلى المائدة تركونى فى اهمال ، وجدت نفسى واقفا فى وحدة بينهم ، فأنظارهم معلقة بما ليس فى أيديهم ، وأيديهم مشغولة بما فيها ، وأفواههم تبتلع بسرعة طالبة المزيد ٠ وأنا واقف وكأننى فى الصحراء لا أحد يقول خذ وأمضغ أو خـذ فى يدك ٠٠ وارتبكت وحرت فيما أفعـله ٠٠ نظرت الى فاطمة ، التى بدت قبيحة الى درجة كبيرة ، وتحـولت الى جسد مرتعش مملوء بالعروق الزرقاء ٠٠ وجهها أصفر ، والفستان متشابك متداخل مرتفع من أمام ركبتها ، سافر عن معظم صدرها ويديها ، ثم تكور فى عدة دوائر وتشابك فى عدة خطوط عنـــد وسطها حتى أحالها الى ثمرة من ثمرات الكرنب المهمل فى الحقول ، وشعرت بالحزن عليها وعلى نفسى ٠

هذه هى عروستى ٠٠ انها على ضعف جمالها كانت أفضل فى ملابسها العادية مما هى عليه الآن فى هذا الزى ، بوسعى أن أفر ٠٠ أن أذهب وأركب قطارا عائدا الى بلدتى ألوذ بجدار طاحـونة قديمة ، تاركا هذا القبح لرجل غيرى ٠ ولكن ما ذنبهـا هى ؟ لم تولد حسب ما تشتهى ، ربما كانت تود أن تكون رجلا أو قردا أو

مجرد قطة ، ولكنها ولدت بنتا فقيرة الجمال ودخلت الشفقة الى قلبى ورثيت لحالى وحالها ، ومددت يدى بقطعة بطاطس ودسستها فى فمها وانا ابتسم وتناولت واحـــدة أخرى ووضعتها فى فمى ، ولكنى لم أستطع مضغها وصوت ساق يقول :

ـ الف مبروك .. الف مبروك ..

وصينية فضية تبرق فى حزن فوقها كاسين من شراب وردى اللون قربها من وجهى فى برود وقال :

ـ اتفضل يا أستاذ ..

واخذت كاسا وارتعشت يدى ، وقطعة البطاطس ما زالت فى فمى تسد حلقى ، ماذا افعل وصاح الرجل مرة أخرى :

ـ الف مبروك يا عروسة .

فناولت الكاس ، للعروسة ، ونظرت الى الساقى فى حيرة .. الذى اقترب أكثر والصينية تلمع تحت الأضواء والـكاس يبرق ، دسست يدى فى جيبى حتى عثرت على ورقة ماليـة فوضعتها على الصنية بسرعة ، ولما رآها صاح متهللا ، وانصرف .

وارتفعت الضجة قليلا ، وبدات الأصـوات تجد طريقهـا مرة أخرى حول الأفـواه .. وترددت الضحكات ، وحضر الى زميـلان وجذبانى بعنف الى ركن بعيد قليلا ، ومد احـدهم يده الى بشىء وقال :

ـ خد .. اشرب .

ـ انت غريب جدا ..

انا غريب فعـــلا ، كل هؤلاء لا يهمهم أمرى ، بقدر ما يهمهم التهام ما يقدرون عليه من طعام دون مقابل وقضاء سهرة ممتعـــة والاستماع الى المنشدين والمطربين ، ثم التحدث عن كل ما شاهدوه

طوال أسبوع بأكمله معددين العيوب والنقائص ، ذاكرين الطعـــام الذى لا طعم له وصاح أحدهما :

— اشرب ، وبعدين تعرف .

وتناولت الـــكأس ، كانت بها شرابا أسود اللون ، ولم تنفع توسلاتى اليهما بل راحا يقنعـــانى بأنه شراب منعش لا ضرر منه مطلقا ، لقد أرسلا فى طلبه من القاهرة خصيصا لليلتى هذه وشربت الكأس وكأنها لهيب مشتعل ، فاندفعت متملصا منهما ، هاربا من هذا الشراب النارى ... وقابلتنى سيدة كانت فيما يبدو تتلصص على ما نفعله فنهرتنى قائلة :

— أقعد جنب عروستك .

وجلست ، كان المقعـد باردا .. أحسست بشىء يغزنى ، وصاحت بعض النسوة ، وابتسمت أخريات والتمعت العيـون التى ألهبتهـا تلك الأكلة الدسمة ، وشراب وزع خفية ، ورنت ضحكات رفيعة وبدأت رائحة الأنثى تسيطر على المكان وصعد على المنصـة شاب أسمر وراح يلقى نكات تتناسب وهذا الجو المغلف بأبخـرة الشراب والطعام ورائحة الأنثى حتى منتصف الليل .

— ألف مبروك .. عقبال البكارى .

ويتسلل المدعوون بعد أن يشدوا على يدى .. وأنا أتمتم بأى شىء .

وأم فاطمة تدور حول النـــاس .. تصعد وتنزل ، وتبتسم وتغضب ، وتقول كلمات غير مفهومة ولحمها الأبيض المتهدل يرتعش حول جسدها الضخم .. وانفض الجميع ولم يبق الا زميلان وبعض أقارب العروس ، واقترح زميل أن يلتقط بعض الصور ثم أخـــذ يشكلنا مجموعات ، قف بجوار فاطمة هكذا ، اجلس وهى تقف ثم قف وهى تجلس ، ابتسم لها ، ضع يدك حول خصرها .. لا ..

يجب أن تضعى يدك حول كتفه ٠٠ قف بجـــوار أم عروستك ، ابتسم ٠ يجب أن تبدو فى الصورة مبتسما ٠٠ لم يبق الا صورة واحدة ٠ نأخذها للجميع ـ ألف مبروك ٠

وانتهى زميلى ، وانصرفنا أنا وزميلاى الى منزلنا بعد أن انتهت ليلة عقد القران ٠

وسرعان ما صـــدمتنى رياح باردة حينما خـرجت من المنـزل وأحسست ميلا للبكاء ، ولـكن عينى ضنت بالدمـــع ، حاولت أن أجرى ولكن قدماى لم تسرعا .. حاولت التحدث الى زميلاى ولكن لسانى لصـق فى حلقى .. ورأسى تصلبت وعينـاى توقفتا عن الرؤية ، ومشيت وكأننى مسحور أو نائم أو مخدر ، رأسى ثقيـلة وفمى جاف ٠٠ أنقل خطواتى بصعوبة ، وفى داخلى شخص آخـر يبتسم فى خبث ٠٠ وأحيانا يرقص وهو يخرج لسانه ، وأحيـان يقفز من طائرة ثم يختفى وسط مجموعة من الثعـابين التى تتلوى حولى ، وتوابيت موتى ، ومقابر مفتوحة ، ونار تشتعل ، وأمى تقف وسط النار تبكى ٠٠ وأنا مشلول أصرخ ولـكن صرخاتى لا تنطلق ٠٠ أندفع لأنقذ أمى ولكنى مقيد ٠

أمى الحبيبة ٠٠ لا تذهبى يا أمى ، أنا هنا أنقـذينى ، تخلصى مما حولك وتعالى ٠٠٠ لا تتركينى أموت يا أمى ٠٠ أنا أخاف الموت ، لا أريد أن أموت الآن ، دعيهم يتركونى أعيش سنوات أخرى لأصنع شيئا لك وللناس ، فقط سنوات يا أمى ٠

والبحار هائجة والمركب يبتعد بها ، أمى ، أمى ، وصوت دقات عنيفة وضحكات مرتفعة وطلعت يصيح :

ـ أين أنت يا رجل !!

ونظرت الى طلعت ، ووددت ان اضع راسى على كتفه وابكى ، أنظر يا طلعت لقد ذهبت أمى فى قاع البحر والتهمها الحوت ٠

آسف يا أمي لم أخبرك بزواجي الا الآن ، كنت متـرددا حتى اللحظة الأخيرة ، ظللت مترددا حتى جاء المأذون وأخذ يدى وأعطانى القلم لكى أكتب أسمي وكتبت على ورقة ٠٠ والورقة تعنى ارتباطى بفاطمة الى الأبد ، لا أعتقد يا أمي ، أنها مجرد ورقة مثل آلاف الورق الملقى في الشوارع وفي أدراج المكاتب ٠

كان علي أن انتظر شهرا أو شـــهرين ٠٠ حتى تعد أم فاطمة المسكن الملائم لنا ٠ وهذا الاعداد بالطبع ، يحتاج سلسلة من عمليات الاختيار والبحث ٠٠ ولكن الست لبيبة لا تريد مساعدة من أحد ولا تدخلا ٠٠ فهي ترتب لكل شيء ترتيبا خاصا ، الشقة موجـــودة في نفس المنزل حتى لا تبعد فاطمة عن عينيها ، والأثاث يحتاج الى مهارة في الشراء والبحث والمفاصلة والمفاضلة وما الى ذلك مما يلزمه الخبرة التي لا تتــوفر في أمثالي من الشـــباب ، والمفروشات بعضها جاهــز بالفعل والآخــر جاري تصـــنيعه ٠٠ وانهمكت الســيدة في التجهيز والاعداد ، ليل نهــار ، بالليل تجلس لتحسب كل قرش صرف ٠٠ وبالنهار تفاصل وتعاين ٠٠ تغضب تارة من النجار وتخاصمه لاعنة جدوده ، فرحة به سعيدة بحظها معه لأنه رجل شــاطر امين ، تارة أخــرى ، ولم يسلم منها بقيـــة الصناع الذين انهمكوا في صــــناعة الأشياء الأخرى ٠

وفي كل يوم اذهب لزيارة فاطمة ، أمكث هناك ساعة أو بعض ساعة .. ولا تسالونني ماذا اريد ؟ هل احب ان يكون الاثاث حديثا او تقليديا . وهل هذا يصلح ام لا يصلح ؟ . وأنا كذلك لم اسألهم ، أعطيتهم نقودا كانت معي ، وهي كل ما استطعت جمعه في خلال مدة عملي مضـــافا اليها بعض النقود التي استطعت اســـــتدانتها من من زملائي ، ومع هذا فقد كان المبلغ لا يكفي لشراء أثاث حجـــرة واحدة ، واستطاعت الست لبيبة أن تدارى هذا العجز ووضـــعت من عندها مبالغ أخرى حتى أصـــبح مبلغا لا أطمع في جمعه طوال

حياتي ، وكان المهر الذى رآه الناس ، مهرا لفاطمة ، متناسبا ومظهر أسرتها ..

وفي خلال الأيام التى سبقت الزفاف .. كنت أضحك وأرقم الأوراق ، واستمع الى قفشات الزملاء ، ثم اذهب الى المنزل أتناول طعامى على عجل وأسرع الى (دسوقى) أتحدث اليه وأساعده فى العمل على الجرار ، وكانت هذه الساعات من أجمل ساعات يومى ، نلهو بالحياة ولا يهمنا أمرها كثيرا ، هو يقص كل الحواديت التى سمعها وحفظها وأنا أقص عليه قصص الرحالة الذين اكتشفوا منابع نهر النيل وداروا حول العالم يشـــقون بحر الظلمات باحثين عن المجهول .. وهوسعيد بما يسمعه لأول مرة .. وأنا فرح بأقاصيصه عن الجنيات وعرائس البحار وعجوز القرية ، وعبيط الجرن ، وابنة العمدة وملك الجان ، ونظل نقص ونحكي حتى يسدل الظلام أستاره على الحقول ، فأتركه لأعود الى منزل فاطمة .

منذ أصبح زواجي بفاطمة أمر حتميا ، لم أجلس اليها وأحدثها وتحدثنى .. تبدو سعيدة فى صمت لا تتكلم ، وأجلس أنا الآخـر بدون رغبة فى الحديث ، وتأتى الأم وتجلس لتقص ما فعلت وما يجب أن تفعله وكيف أن هذا الـرجل الذى يبيـع أدوات المطبـخ انتهازى وبائع القطن وبائع السجاد كذلك ، رغم أننا فى بلاد السجاد ، كلهم انتهازيون وطماعون وتظل تتحدث هكذا لمدة ما يقرب من الساعة ثم تنصرف بحجة أنها نسيت شيئا ، وتنصرف ولكن أشعر أنها ما زالت جالسة بيننا ، فلا أشعر بالرغبة فى الجلوس ، وانهض لأسير عبر الشـــــوارع أسال نفسى .. هل هذا هو الزواج أم أننى فعلت شـيئا غير ملائم ، سـقطت فى بئر أسـود حالك السـواد مملوء بالثعابين والحيات ، وامرأة جميلة تسـير أمامى فى الشـارع ، لو أننى وضعت يدى على أردافها .. ملابسـها ضيقة تبرز جسدها كحية راقصة تتلوى ، وأتحسس الحية ، انهـا

دافئة صوت المارة وحزن نائم فى أعماق منذ الأبد ، وتقاليد ونظم التربية تكبلنى بحديد من قيم الحياة ، وتمنعنى وتشل حركتى وتخنق الرغبة فى أعماقى ، ولكن المرأة تضحك ، فحدثتها وأجابتنى بقبلة فأسرعت الى أحضانى ، وسرنا أنا وهى فى شارع النيل حتى شجرة كبيرة ، وجلسنا فى ظلها نلتهم الحب .. وتتعرى المرأة ويبدو جسدها النابض بالحياة ، والسمرة والسمنة تجعلان الأرداف مكورة والنهود جبلا من الكرز الناضج ، والشفاة قطعتين من البطارخ ، والجسد يتلوى فى رغبة ، واقتربت لألمس حبات الكرز ، خشن ، شعر المرأة مجعد ، أصابنى برعشة ، صرخت فى بائع الفول ، سبها الرجل .. حاولت أن أصرخ فيه ، دفعنى الناس الى اليسار وصدمنى آخرون . ودفعونى الى اليمين ، بائع ملابس للأطفال صـــاح فى وجهى :

– بخمسة قروش .

رأيت أسنانه ، مسوسة سوداء بها ثقوب ، استدرت بسرعه ، لطمنى كيس يحمله رجل ، ترنحت مسك بى رجل عجوز وقال :

– أنت أعمى ..

وصرخ الأولاد ، ونفخ البهلوان فى زمارته وعدت الى المنزل ..

ابن الطين والخوف والرغبـــة أنا .. ابن امرأة تعيش حتى وســـطها فى الوحل تهرس روث البهـــائم وقشر النبات الناشف بأقدامها لتصنع وقودا تطهى عليه طعامها .

يا جنيات الريح ، يا ملكات الفضـــاء ، ويا زوابع الخريف ، أحملينى فوق أجنحتك حتى البرج التاسع فوق القمر الأسود ، لأنام فى كهف المائة عام وأصحو لأجد القمر قد أصبح أرضا ، والأرض استحالت الى قمر لا يعكس أشعته بل يحتفظ بها لنفسه يرسلها الى سكانه ، الى داخل نفوسهم فيصبح الانسان شفافا مثل الملاك ،

ويتحول الناس الى ملائكة يأكلون الفاكهة من فوق الشجر ولا يقربون روث البهائم ولا لحومها ٠

وصاحت الجنيات الأربع من فوق السحابة الداكنة التى تعبر محيط الأحلام الواقع شمال بلدتنا :

ـ سوف ندور حول الأرض ألف دورة ثم دورة ٠ فاذا كانت الدورة الأولى بعد الألف الأولى نرسل لكم سلما ويصعد الينا فتى منكم فنعطيه مفتاح المحيط ٠

واستدارت الجنيات وهن باسمات ٠٠ ولكن احداهن قالت :

ـ ولكن الويل لكم أن أخطأتم فى عد الدورات أو تناسيتم السلم وذهبت الجنيات ، وعلينا أن نبدأ العد ، عد دوراتهن حول الأرض وننظر الى السماء فى انتظار السلم ٠

صفير القطار مختلط بدقات الطبول ، نزلت من الدرجة الثالثة ، ترتدى السواد ، فى يدها سلة صغيرة ، خلفها ثلاثة وجوه جامدة فى أيديهم عصى غليظة ، حول أكتافهم عباءات سوداء وفى أيديهم سلال ، خلفهم فتى قصير ببدلة زرقاء يبتسم فى بلاهة ، أشار بيده ناحيتى ، أسرعوا نحوى ، الوجوه الجامدة ، صحت مندفعا :

ـ أمى ٠٠٠

عروقهـا بارزة . يداها باردتان ، وتمسـكان بى ، نظراتهـا جامدة ، والسلة بها طعام نظرها أصبح ضعيفا ، تحسستنى وهى تسعل ثم قالت :

ـ دثرنى يا ولدى ٠٠

أمى حاولت أن تحضر ليلة الزفاف ٠ أرسلت لها لتأتى ، صرخت فى الأوراق ، بكيت ، وملأت القلم وكتبت رسالة الى أمى ٠٠ ربما يسعدها رؤيتى وأنا أتزوج يوم الخميس القادم ٠

ـ انتظر يا أخى ..

ـ استلم ووقع فقط .

ـ وهل هذا هين يا سيدنا ..

ـ نعم .. مثل كل يوم .

ـ والعدد هل هو مضبوط .. المرفقات سليمة ؟ .

ـ أنت مثقف و ..

لا .. لست أنا .. لن ترشونى بهذا اللقب .. سأرفض الاستلام .

ـ سأخبر المدير .

ـ لا يهمنى ..

وأسرع شخص ثالث .. وقال :

ـ لا تؤاخذه اليوم زفافه .. وهو فى حالة غير طيبة ..

ـ الف مبروك .

ـ طيب .

ـ لا داعى اليوم للاستلام .. والف مبروك مرة أخرى .

ـ طيب .

وتظاهرت بعدم المبالاة ، وانهمكت فى العمل أحاول أن أدارى اضطرابى ، وتقدم منى أحد زملائى وكان متقدما فى السن الى حد ما وأكن له بعض الحب والاحترام ، وجلس بجوارى يردد الكلمات المعتادة فى مثل هذه الحالات :

ـ الف مبروك .

ـ شكرا .

ـ أنت مستعد طبعا ، هذه الليلة فاتحة باب جديد ، ادخلها ، وأنت قوى ..

ـ انشاء الله ٠

فاطمة كانت تتسلل ، وتصعد السلالم فى تلصص ، وما أن اسمع نقرات أصابعها على الباب حتى أفتح لها وتدخل مندفعة الى حجـــرتى ، وأغلق ورائى باب غرفتى لنحلق معا فى عالم حسى ، ورأيت علما أحمر ، يرفرف فوق الشرفة ، ثم دخل العلم وارتمى تحت قدمى وغطى أرض الحجرة ٠

ـ تذكر أن الداية تعمد الى جرح الفتاة بأى طريقة لتحصـــل على نقط الدم تلوث بها قطعة قماش أبيض تنشرها الأم أمام أعين الأهل والأقارب والحساد وتصيح وهى تزغرد هذا دليـــل شرف ابنتى ، فلا تجعلهم يفعلون ذلك ٠

ـ حاضر ٠

ـ يجب أن تتأكد أنت بنفسك من ٠٠٠

من ماذا ؟ كانت تأتى الى حجرتى وان خطر ببال هذا الرجل هذا الخاطر الذى يراوده لكان الأمر سهلا وميسورا بل تفسيرا لما جدث ٠ الرحمة يا قوم أنا لم أرد بكم سوءا ولم أنو لكم ضررا ٠٠ لماذا تقذفوننى بصفائح الدم ٠

ـ تذكر كل هذا ـ فقد حدث لأحد أصدقائى ٠

مرة أخرى يتحدث هذا الـــــرجل ، أنه يقذفنى بكلماته وأنا لا أستطيع الهروب ٠٠

ـ وكانت المداعبة ثقيلة بعض الشىء ، فاندفع الدم بعنف ، وراحا يحاولان منع تدفقه ولكن دون جدوى ، لم تنفع قطع القطن ولا الملابس فى ايقافه وحملها بين يديه وهى أشبه بجثة هامدة غارقة فى بحر من الدماء ووضعها فى حوض الحمام ٠٠ وسكب عليها الماء محاولا أن يوقف الدماء ولكن لا فائدة اختلط الدم الأحمر بميـــاه

الصنبور وطفى عليه ، واصيب (فخرى) بذعر هائل ماذا يفعل ؟ وتلقف سماعة التليفون يستدعى طبيبا صديقا يستنجد به .

— ما ذا فعل الطبيب !! .

— بعد مجهود كبير أوقف النزيف وأنقـــذ روح الفتاة التى كانت ستضيع فى مداعبة شيطانية .

واستأذن زميلى وانصرف ، تركنى فى دوامة من رياح حمراء ، تجذبنى الى وسطها ، وفاطمة تسبح فى الدماء ، تشهق ، تصرخ ، انقذونى ، ولكن كيفانقذها ؟ وأعاصير الدماءتحاصرنى ، و (فخرى) يضحك من بعيد مشيرا الى فى تهكم و ، طلعت يجذبنى ، يشدنى .

— لا .. يجب تأجيل الزفاف الليلة .

— ماذا تقول ؟ .

— لا أستطيع .

— كل شىء معد ولم يبق سوى ثلاث ساعات .

وجذبنى طلعت من خلف مكتبى وهو يقول :

— العمل انتهى وكل زملائك انصرفوا ، هل أنت مريض .. ؟

نظرت حولى فوجدت الحجرة خاوية ، مكاتب وحيدة حزينة ، ذهبت الى المنزل وجدت أمى وأقاربها ، أخذوا يحدثوننى ، أتوا بطعام ، راحت أمى تغرى طلعت بالحديث معى ، صنعت لى كوبا من الشاى .

الشاى لونه أحمر مثل الدم ، عيون أمى حمراء ، غلاف كتاب طلعت أحمر .. الشمس تميل الى الغروب ، لهـــا شراع أحمر ، انطلقت قذيفة مدفع اخترقت زجاج النافذة ، حطمته ثم اخترقت صدرى وانفجر الدم فوضعت يدى على صدرى لأكتم الدماء ولكنها اخترقت يدى وسالت على الأرض ولوثت المقاعد والفراش وغطت

كتب طلعت وأوراقه وبحوثه ثم ارتفعت حتى صـــدر أمى التى شهقت وبكت .. ودخلت فاطمة منفرجة القدمين يسيل منها الدم ، وفى عينيها نظرات حزينة واقتربت منى ووضعت يديها حول رقبتى وأخذت تضغط بعنف ، أنها ستقتلنى .. صحت :

ـ أنت مجنونة ..

ـ الحق على أنا ، أضبط لك الكرافت حتى تبدو أنيقا .

ـ شكرا يا طلعت .

وجاء موعد الذهاب الى بيت العروس ، كانت بى رغبة فى الفرار ولكن طلعت وأمى يدفعاننى بقوة ، يجذبنى طلعت من يدى ، ومجموعة صغيرة من النسوة وبعض الرجال تناولوا معنا العشاء .

وبدون طبول أو مزامير صعدت مع فاطمة الى مسكننا الجديد فى المنزل ، مجرد زغاريد أطلقتها امرأة بدينة ، بسمات باهتة على وجوه الذين التهموا الطعام .. فرحة حائرة لا تستقر على [illegible] أمى ، إرهاق أصفر على وجه [illegible] .

صمت هائل مطبق على الجدران ، قطع الأثاث الجديدة تلمع فى حزن . ومائدة الطعام الطويلة تبدو كتابوت فرعون ضخم ، وحوله المقاعد الخضراء اللون تبدو هى الأخرى كأنها التوابيت خدم وحاشية فرعون ، وبعض الصور المعلقة حبيسة اطاراتها الكالحة ، صورة لمصارع ثيران يمسك فى يده وشاحا احمر ويلوح به أمام الثور ، وانقض الثور على الوشاح ولكن المصارع [illegible] انفلت بسهولة . ورفرف الوشاح الأحمر مرة أخرى وكان أكبر من ذى قبل واتسع .. فاغتاظ الثور ومزق الوشـــاح الى نصفين وضحك المصارع ورفع قسمى الوشاح ساخرا من الثور الغبى ، وارتفع صياح مجنون ، هادرا من صفوف المتفرجين يهللون للبطل ،

وقذفته النسوة بباقات الورد ـ وانتعش المصارع فى كبرياء ورفع وشاحه الاحمر فى الهواء مثيرا الثور الذى اندفع هذه المرة مهاجما ، ولكن المصارع كان أسرع منه فاغمد سيفه حتى مقبضه فى كتف الثور ، الذى تلوى من الألم ثم سقط على الأرض غارقا فى دمه وســـــال الدم ليملأ كل أرض الحلبة ثم يطفو حتى أغرق كتل المتفرجين .

- ١٦ -

حينما تشرق الشمس على ربى قريتى الرابضة هناك بجوار النهر ، ويمتلىء الجو برائحة زهور البقول ، وينهض النوم الجاثم على العيون ، وتذهب الأشباح فتختفى خلف السحاب ، وينصت الأطفال الى نداءات امهاتهم فى خبث وهم يحاولون التظـــاهر بالنعاس ..

حينما تستقبل (مسعدة) ذلك الصباح وهى تحمل جرتها وتعدو لتلحق الفتيات وتبتسم لخاطرة تمر لحظة برأسها . كأنها حلم ليلة أمس .

ويستقبل البائع أول عميل .. وهو مازال يدعو الله ويسبح باسمه ، وتبدأ قريتى يومها كالمعتاد .

ابدأ أنا الآخر يومى بالم شديد يشبه الم الاحتضار ، واليوم مثل الغد ، مثل الأمس لا جديد ، والعقل يسبح فى الفراغ . والحلم يصطاد الفراغ . والنفس كســـيرة وكأنها محملة بأطنان الذنوب والهواجس ، والقلب حزين وكأنه عشق الحزن . والشاى والطعام ميتة على المائدة والملابس مشنوقة على المشاجب .. هذه سترتى السوداء معلقة من اكتافها ، والأكمام فارغة ساقطة مدلاة دون حياة والحذاء يرقد أسفل المقعد يتدلى منه الرباط يستجدى اصوات مكتومة من الشارع ، والحر يرسل اشاراته الصباحية معلنا حربا ضروسا ..

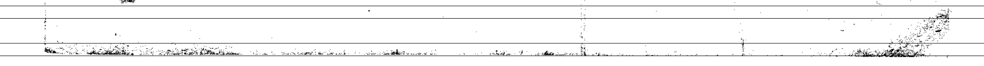
ذلك يومى ، فى بدايته ، واعود بعد الظهر الى الأشياء نفسها وكلما خرجت فى الصباح ينتابنى احساس بالذنب ، الذنب فى حق نفسى لماذا تزوجت ؟ لماذا اندفعت مسلوب الارادة الى زواج اعتقد فى نفسى بأنه لن يسعدنى ؟ لماذا اقبلت على الارتباط هكذا بعقد لا احترمه كثيرا ؟ .

تزوجت ومضى على زواجى أكثر من شهر وكلما تقدمت الأيام، احسست اكثر بأن زواجى غير موفق . ولكنى مسلوب الارادة متردد لا اجرؤ على فعل شيء .. تزوجت دون رغبـــة حقيقية احيانا حينما اجلس مع نفسى اجد انى محظوظ فى زواجى ، واظل اعدد محاسن زوجتى ومآثرها محاولا مقارنتها بمن هن أقل منها ، ماذا يفعل هؤلاء الأزواج مع زوجاتهم وهم ليسوا أقل منى وابرهن لنفسى اننى بالفعل محظوظ ــ وان حظى السعيد هوالذى دفعنى الى ذلك الزواج . ولكن ماان انتهى من هـــذه النتيجة حتى يعاودنى الاحساس بالفشل وعدم الثقة بهذا الحظ السعيد.

ولكن ما هى الحياة ، ولماذا نولد ؟ وما هى العلاقة بين الولادة المتكررة للانسان واستمرار الحياة ، لابد أن هناك ارتباطا بين ذلك التكرار والموت ، اما ان الحياة تتلهى بنا لتضحك ، أو انها تسخرنا لتستمر ، سواء أكان علينا ان نجلب السرور الى الحياة أو نساعدها فى البقاء والاستمرار . .فان علينا فى الحالين دورا هاما نؤديه .

ولكن ما دورى انا ؟ ! هل سأظل معلقا مثل بدلتى الســـوداء فى مشجب الحياة لا نفع لى ؟ طالما انا جالس هكذا فى مكانى قابع خلف الدوسيهات فى الارشيف اضع الارقام على الأوراق ، واحلم بالجنية التى تأتى وتختارنى من بين كل هؤلاء الناس لكى أصنع التاريخ ! ..





ومع هذا فالجنيات تحتاج الى نوع من الجهد لكى تاتى ، ربما تالى بالسحر وهذا يحتاج الى طقوس طويلة مملة .. أو تحتاج الى تعبد وصوم وطقوس صوفية مرهقة ، وسواء أكان حضورها بالسحر او بالتصوف او بشيء آخر يحتاج الى جهد وانا لا اميل الى بذله ، فاحتمال حضور الجنية ، احتمال ضعيف جدا بل مجرد توقع حضورها أمر مبالغ فيه ، فلابد أن عم « مغـــاورى » ، حينما سخر جنية البحر فى اعماله كان ذلك بعد أن بذل الكثير من الجهد وهو المعروف دائما بالصبر والجلد ولم يترك حقله أبدا فى أى لحظة من نهار أو ليل .. بل انه وقف لفيضان النهر وتحداه ومنعه عن أرضه وصنع بجهوده الفردية سدا ترابيا فى وجـه النهر وارغمه على احترامه . نعم « مغاورى » قبل حضور الجنية كان مخلصا فى عمله مقبلا عليه .. وبحضور الجنية لم يتكاســل ويترك لها كل شيء ..

ــ الشاى برد ..

واتى صوتها وكانه جاء من بعيد ، نظرت اليها ، زوجتى الجميلة ذات الشعر الأسود ، معبودتى ، صفراء فى سمرة حزينة فى يأس ، ورفعت فنجان الشاى لابتلعه مرة واحدة .. ولم أرد فعاودت السؤال مرة أخرى :

ــ أنت سرحان ؟

ــ لا شيء ..

لا شيء ، مجرد دوران من عقلى .. فلابد للعقل ان يـدور ويفكر .. هذه مهنته ويظل هكذا يدور ويفكر ، ربما يفكر فيك أنت ، أو فى أكلة ، أو فى الموت ..

ــ تأخرت .

ــ فعلا .

وجذبت بدلتي من على الشجب .. ووضعتها على حافة المقعد ها هي جثتي .. وزوجتي تبكي . كم أنا سعيد ببكاء زوجتي إنها انفعلت اخيرا بشيء ..

ــ تشرب قهوة ؟ ..

ــ أشرب ..

في المأتم يشربون القهوة بدون سكر .. ولا أدري السبب أو العلاقة بين شرب القهوة السادة والمأتم . من الجائز انها عادة فقط وجريا وراء تلك العادة سوف أشرب القهوة على جثتي ولكني لم أمت بعد .. وارتديت ملابسي وشربت القهوة ..

الشارع ساكن .. مجموعة من فتيات المدرسة الثانوية يسرن في بطء ويتحدثن في سرعة وحماس ، ما أجمل بنات المدارس في زيهن المدرسي « انهن يجعلن الشوارع جميلة ويشعن فيها الحيوية بابتساماتهن الرقيقة الصبوح ، وحديثهن يغمر الشارع بالحياة ، كيف كانت تبدو زوجتي وهي مرتدية مثل هذا الزي ؟ وكان شكلها وهي تتأبط حقيبة المدرسة وتسير وسط مجموعة منهن ؟ ! .

عندما كنت في المدرسة الثانوية ، كانت كل آمالي محصورة في التعرف على طالبة صغيرة لطيفة جميلة في مدرسة البنات التي لا تبعد كثيرا عن مدرستي . وظللت طوال سنواتي الخمس في المدرسة الثانوية أمني نفسي وأرسم الخطط ، في خيالي فقط للحصول على ود هذه الفتاة .

وكنت اراقب .. وانا في هذه المرحلة من الدراسة ، عربة يجرها حصان أبيض تأتي الى باب المدرسة وهي تحمل خمسة من الأخوة اكبرهم فتاة شقراء ، وجهها مثل وجه ملاك الخير ، كانت طالبة في المدرسة الثانوية للبنات ، والأربعة الآخرون زملاء

لى فى المدرسة . وفى كل صباح أضطر الى القفز من القطار حتى يمكننى الذهاب الى باب المدرسة قبل وصول العربة لأرى معبودتى الجميلة .. ويبدو أن سائق العربة لا حظ ذلك .. ففى احـــدى المرات تعمد أن يصدمنى فسقطت على الأرض .

وصاح زميلى عبد الله :

— أين انت ؟

متى ؟ اليوم ام امس أم منذ عشر سنوات ؟ كنت فى الدنيا ، ولكن عبد الله صاح مرة اخرى :

— سيادة المدير سأل عنك عشر مرات .

— لماذا ؟

— ادخل بسرعة .

واندفعت الى مكتب المدير متأثرا بــكلام عبد الله وبلهجته الجادة ، ولكنى لم اكن متيقظا تماما لهذه المقابلة .

وما أن رآنى المدير حتى انهال على بكلمات لم اتبينها تماما ، ولكن لاحظت وانا احاول جاهدا أن افيق ، انه منفعل وغاضب واننى لابد قد فعلت شيئا هائلا ، لقد حطم اهلك الألواح ياموسى وداسوا عليها وعبدوا العجل واكلوه .. ولكنهم سيندمون .

وامرنى بالتوقيع على ورقة كانت امامه ، فوقعت منــدفعا أيضا لأتخلص من هذا الموقف ولكنى بعد ان ذهبت الى مكتبى وتحدث الى الزملاء فى العمـل وافهمونى حقيقــة ما حدث بدأت اتبين الأمر ومرارته .

التحقيق .. وربما ينتهى هذا التحقيق الى ادانتى وهـــذا أمر سىء ، ولم تنفع نصائح الزملاء فى تهدئة أعصابى المنهارة . ولم تنجح أقاصيصهم عن التحقيقات وكثرتها وعــدم اهميتها

والمبالغة فى أمرها فى أن توقف إندفاع أفكارى وانهيار أعصابى والأسئلة الهائلة العدد التى تدور فى رأسى .

ماذا فى عملى يستحق كل هذا الاهتمام ، مجرد ترقيم الأوراق ؟ بعد كل هذه السنوات من التعليم والدراسة ، وعلم الحيوان ، والنبات ، وعلم النفس ، والرياضيات ، والفلسفة وتاريخ العرب ، وعلم الحساب والجبر ، وآلاف الأبيات من مختارات الشعر الصخرى القديم ، والأسرة الرابعة التى بنت الأهرام ، وحروب رمسيس ، وغزو الهكسوس ، وكم أصبع فى رجل الدجاجة ، ومقدمة ابن خلدون ، ومصر هبة النيل ، ومشكلة تضخم السكان ، ومراجع الأبحاث ، ونظريات أرسطو ، ثم بعد ذلك تخطىء فى ترقيم الأوراق ؟ لابد وأن الأمور غير واضحة ..

ـ سيزيف ، لماذا تحديت كبير الآلهة ؟

ـ لأنه يخطىء يا سيدى ..

ـ ولماذا يخطىء كبير الآلهة يا سيزيف ؟

ـ لأنه كبير الآلهة .

ـ ولماذا هو كبير الآلهة ؟

ـ لأننا اخترناه لذلك .

ـ اذا قد جانبكم الصواب يا سيزيف .

ـ نعم نحن خطاؤون يا سيدى .

ـ وستظل تحمل الصخرة حتى نهاية الجبل يا سيزيف .

ـ حتى اذا بلغتها سقطت ثانية يا سيدى .

ـ لتعود وتحملها من جديد الى قمة الجبل يا سيزيف .

ـ حتى الأبد يا سيدى .

ـ حتى الأبد يا سيزيف .

وذهبت الى المنزل ؛ ماذا اقول لزوجتي وهي بدون هـــذا الخبر السيء حزينة دائما . شاحبة دائما .

ـ مليكتي الحزينة الرحيمة ، الجلاد يقف بالبـــاب ، وينتظر حكمك ، وقاطع الرقاب يشحذ سكينه ، واعلام الحداد تزال عنها الأتربة ، وموكب الفرســـان يتأهب . مليكتي ماذا أقول لقـــاضي القضاة ؟ .

ـ انتظر . قل له أن ينتظر ..

اسرعت الى الحقول ابحث عن صديقي (دسوقي) : لعلـي اجد عنده الجواب . او مجرد ترويح عن النفس ، ولكني لم اجده في مكانه المعتاد ، وبحثت عنه طويلا في اطراف الحقول والحجت في السؤال كانت بي رغبة قوية لمقابلته ، واخيرا هداني احدهم الى مكانه ، ونصحني الرجل أن انتظره في البيت لأن الطريق اليه متعب ، حيث يقوم باصلاح احدى آلات الرى في قرية بعيدة ولكني لم إستمع الى هذا النصح .

وبعد ساعة من السير في طريق مترب ملتو وسط الحقول . وجدت (دسوقي) منهمكا في أصلاح الماكينة وحوله بعض الرجال ينظرون اليه بصبر نافد .. فلما شاهدوني مقبلا عليهم صاح احدهم :

ـ الحمد لله ، الباشمهندس وصل .

وهرول الجميع نحوي ، وقد علت وجوههم الجامدة سرور مفاجيء وابتسامات عريضة ، .. وهزتني مشاعر هؤلاء الرجـــال ولكن صدمتني الحقيقة فلست مهندسا ، ولا افهم في هـــذه الماكينة شيئا ونظرت الى (دسوقي) ، عله يعرفني بالقوم ، الا انه ابتسم وقال :

ـ الباشمهندس من المؤسسة .

ووجدت نفسى محاصرا بنظراتهم وابتساماتهم التى ملأها الأمل بحضورى ، ونظرة دسوقى الهادئة ، وصاح أحدهم فى آخر ان يحضر شايا ، وفى آخر ان يحضر ما أجلس عليه ، وانهمك الجميع فى تلبية النداء بحماس ، وتقدم منى دسوقى باحترام ثم اخذ يشرح لى العطب الذى أصاب الماكينة وكأنه يخاطب مهندسا بالفعل ثم انتهز فرصة انشغال الرجال ووضح لى الأمر بأنه سهل وليس علينا الا أن نعيد وضع الزيت بين تروس الآلة وتعديل بعض الأسلاك أو استبدالها وهو سيقوم بذلك ، وعلى فقط أن اتابعه واتدخل بين لحظة واخرى ، واعترضت لأن هذا خداع وتضليل أناس لا يستحقون منا هذا ، ولكنه أشار على بالسكوت واعدا بأنه سيشرح لى الأمر فيما بعد

ودارت الآلة ، وتصاعد هديرها يملأ سكون الحقول ، واندفع الماء من فمها سخيا كريما ، وهلل الرجال وهم يشكروننا بالحاح ولم نستطع التخلص منهم الا بعد ان شربنا الشاى أكثر من مرة وأكلنا معهم ، واخيرا أصروا على أن نركب الحمير ويوصلنا احدهم الى أسيوط حتى يطمئنوا علينا ورفض دسوقى بقوة أن يأخذ مليما واحدا أجرا تكريما لحضورى .

وتوجهت الى منزلى ، اسكرتنى كلمة (الباشمهندس) واسعدنى حديث الرجال وترحيبهم بى وأحسست أننى أعدت الى نفوسهم بعض الهدوء وأسعدتهم فقدموا لى طعامهم وشرابهم ومرحهم ، وشعرت بأننى صنعت فى الحقيقة شيئا واقعيا لا خياليا . انسانى مشكلتى .

وارتفع فى اعماقى نداء يشدنى الى القرية ، الى أهلها ، الى آلاتها الحديثة الصغيرة ، وطالما اننا وجدنا فى الحياة سواء شئنا أو لم نشأ .. فانه يتحتم علينا أن نصنع شيئا ، أن نجعل لوجودنا نفعا ولو قليلا ، وطالما أن الميلاد قد حدث بالفعل وان

الوفاة ستحدث بالتأكيد فان الزمن بين الحدثين لابد وان يصلح لتقــديم عرض ما نلهو به ويشــاهده الآخرون ، أما وقوفنا هكذا نتساءل فقط فليس له معنى .

وراعنى ، حينما وصلت الى المنزل هدوءه الشديد ، ودفعت باب حجرة زوجتى فلم اجدها ودخلت الى المطبخ فوجدت طعاما باردا وعليه ورقة تخبــرنى فيها زوجتى بانها شــعرت بالخوف لوحدتها فذهبت الى امها .

وتركت الطعام فى مكانه ومزقت الورقة فى غيظ ، وذهبت الى فراشى البارد وانا أحمل هذا السؤال :

— أى عرض اقدمه انا على المسرح واى شىء اصنعه انا بحياتى هذه ؟

- ١٨ -

عندما يأتى الليل ، فى مدينة أسيوط ، تصبح الدنيا رهيبة مخيفة مملوءة بأرواح الشر التى تريد أن تنقض على الانســان الوحيد فى مسكنه الضيق بالدور الرابع من عمارة حديثة البنـاء والنور يختنق ، وطنين فىالأذن وارهاق ركوب الحمار يهز الجسد وعويل ماكينة الرى ، وفراش بارد وغطاء ملون برسوم ازهــار صفراء ، وحاولت النوم واطفأت النور .

أنفاس شرير يقترب،يمد يده ليخنقنى ، ويضغط على رقبتى لا استطيع التقاط أنفاسى ، اننى اموت ؟ وافتح عينى بقوة واحملق فى الفراغ المظلم ، ولكن دقات قلبى مازالت تدق بشدة والخوف يملؤنى رعبا واضىء النور فلا أجد شيئا .

صعدت السلم بسرعة وارتفعت حتى لامست السحابة الأولى بيدى ولكنى ما ان رايتها وسرت نحوها بضــع خطوات حتى سقطت دفعة واحدة ، صرخت ولكن صوتى خاننى ، كنت أسقط بسرعة هائلة ، حاولت ان أتشبث بشىء ، وجدت قضـــيبا من الحديد ، امسكت به واضات النور .

الحجرة صامتة ، الصمت له كثافة مثل ماء البحر ، والقارب وسط البحر ، وفتاة جميلة تستلقى في القارب ، اقتربت منها مال القارب وانقلب في الماء ، صرخت الفتاة ولكن الحوت أحمـد

صرخاتها وابتلعها ، اسرعت حتى لا يمسك بى ولكنه يسرع اكثر منى ويكاد يقضمنى باسنانه .

سافرت حتى الهند ، سحر ومعابد ، ولكن الهند ملأى بالحواة ، والحواة معهم ثعابين طويلة ضخمة ترتفع فى الهواء وتخرج من السلال ثم تنفخ فى وجهى فارتعد واحاول ان اجرى ولكن الثعابين كثيرة وموجودة فى كل مكان . ولكن طائرا يحملنى الى الفضاء وارتفع فى السماء ، وتتساقط الجبال من أسفل وتبدو المدينة صغيرة وواد من الخضرة يضيق ، ومراعى ابقار وانهار طويلة ملتوية بين الوديان والجبال ، وبحار زرقاء لها رائحة . وبحيرات وفتيات يرقصن حول الماء والطيور ملونة ؛ واندفع اكثر نحو المجهول وراء الالوان ، ولكن جدارا ، اسود فى السماء يمنعنى من الحركة ، ويجبرنى على الهبوط فاسقط بسرعة وتشتد ضربات قلبى ، ثم أسقط مرة واحدة فى بئر الخوف .

لا فائدة ! يجب ان اظل مستيقظا حتى الصباح ، حتى يمتلىء الشارع بالضجيج وتعلو اصوات المارة بلهجتهم الخشنة ، ربما تبعث الأمن الى نفسى . ولكن ما يزال فى الليل بقية .

ـ يا جنيات الأمل الحلو .. أيمكن ان تحدثننى حتى الصباح و حتى انام على نغماتكن الحلوة ؟

لا .. لا .. اقصدكن يا شريرات الجبال .. يا آكلات الأمل ابتعدن عنى فلست فى حاجة اليكن .

ولكن لماذا يا شريرات الليل لا تبتعدن ابدا ؟ ان اجنحتكن السوداء الطويلة ترفرف حول راسى بل احس بلهيب انفاسكن حول وجهى .

ـ لن نذهب فانت وحيد ، ونريد التسرية عنك .

ـ لا اريد .. اذهبن فقط حتى أستريح .

ـ ولكنك مستريح فعلا .. ماذا فعلت اليوم حتى تشعر بالإرهاق ؟ هل نضب منك العرق ؟ هل فكرت مجرد تفكير في أن تعمل شيئا ؟

ـ لقد بذلت جهدا كبيرا اليوم .

ـ في ماذا ؟

ـ في اشياء كثيرة .

ـ لا .. انت تكذب .. ولن تخدعنا .. نحن نعلم عنك اشياء كثيرة ، انت تناجي جنيات الأمل وانت نائم في الفراش ، انت تحلم وانت جالس في عملك ، انك محتاج الى خدماتنا .

ـ سوف انادي جنيات البحار واصرخ حتى تذهبن .

ـ لن يمكنك الصراخ ، انت جبان ، أولى بك ان تقتل زوجتك أن تخنقها بيديك .. ثم تصرخ .

ـ ولماذا أقتل زوجتي ؟

ـ لأنها تركتك وحيدا في ليل بارد كهذا .

ـ حقيقة ، ولكن الأمر لا يستحق القتل .

ـ انت ضعيف ، بل يستحق ، حتى تجعل لحياتك قيمة .

ـ سوف اقتلها ..

ـ اقتلها واستريح .

ـ نعم ، سوف اقتلها .

وصرخت شريرات الليل وضحكن في سخريه ثم صحن وهن ذاهبات .

ـ لن تفعل فانت تحلم كثيرا .

يا لها من ليلة مرهقة ، شريرات وجنيات وثعابين ، وكل هذا ، لانني أنام وحدى ، لقد سبق ان نمت وحدى سنوات عديدة . كنت وانا طالب استاجر حجرة فوق السطوح وانام فيها وحدى وليس معى الا النجوم .

في إحدى الليالى .. وبعد منتصف الليل تقريبا .. وبينما انا جالس . احاول .. مراجعة بعض مواد الفلسفة ، سمعت دقا على الباب ، وانتبهت جيدا بعد ان تركت إفلاطون يهذى ، وتكررت الدقات على الباب وانا متردد هل افتح الباب ام لا ؟ واخيرا اعتمدت على القليل من الشجاعة التى املكها وعلى القليل من المتاع الذى لا يستحق السرقة ، وفتحت الباب واذا بى أجد شابا طويلا نحيفا ، دقيق الملامح شارد النظرات اندفع الى الداخل وجلس على المقعد الوحيد فى الغرفة . أغلقت الباب وجلست على حافة الفراش ، ولم ينطق الرجل وأنا أحاول ان اتذكر ان كان زميلى او صديقى او مجرد بلدياتى .. ولكن شكله كان غريبا .

ـ شاى ..

ـ شكرا ..

ولم افهم هل أصنع له الشاى أم ان شكرا هذه تعنى الرفض وآثرت أن أعد الشاى ربما تشغلنى الحركة بعض الوقت وتساعدنى على التفكير السليم ، وشرب الشاى باستمتاع وأنا انظر اليه علّه يتكلم . وبعد أن انتهى من كوبه قال فى صوت خفيض :

ـ اريد أن أنام ..

وحرت فيما أفعل ، لا أملك الا فراشا واحدا لا يكفى الا فردا واحدا .. ولاحظ هو حيرتى فقال :

ـ ان امكن ..

واندفعت بسرعة واجبته :

ـ طبعا سندبر الأمر .

كنت اود أن اساله عن اسمه وعن بلده واسئلة اخرى كثيرة ولكن ما ان اشرت اليه أن ينام على الفراش حتى راح في نـوم عميق بمجرد ملامسته للفراش ، وظللت انا طوال الليل احاول معرفة ما يقوله فلاسفة اليونان . وفي الصباح لم اجده ، كان قد خرج وانا اعد له طعام الفطور .

ماذا لو دق الباب الآن وطرقه طارق .. هل افتح ام اظـل مسترخيا في دفء الفراش ؟ ربما افتحت الباب ودخل رجل .. طويل ضخم الجثة في يده سلاح حاد .

ـ من انت ؟

ـ لا يهمك أن تعرف .

ـ ولكن ماذا تريد .

وقيدني الرجل في مقعدي ، ثم سلبني بعض ما أملك وتركني مقيدا ، والقيد يحز في جسدي وفي نفسي .

لا ، ليست الأمور بمثل هذه البساطة ، اقـاوم ، أصرخ ، اقذفه بالمقعد ، اتعارك معه افعل ما يفعله الرجال في مثل هـذه الحالة .

واحيانا يختلف الأمر . ودقات رقيقة على الباب .. وبعـد تردد انظر من الطارق ؟ .

ـ انا .. ارجوك افتح الباب .

ـ من انت ؟

ـ انا امسية الخير .

— وماذا تريدين ؟

— سوف تعلم لو فتحت الباب .

— حسنا ، ادخلى اذا ..

يا للجمال !!

الروعة والحسن ، والقد المشوق ، والشعر الحرير والقوام البديع وصوت رقيق يقول :

— لقد ناديتنى منذ دقيقة فاتيت اليك ، واخترقت السحب وينابيع الامطار وتخطيت مساقط الثلوج .. لالحق بك ..

— من أجلى انا فعلت كل هذا .

— نعم ومن اجلك افعل اكثر من هذا ..

— سأعد لك شايا .

— لا . أرجوك .. لقد احضرت لك شرابا صنعته لك بنفسى هو خلاصة كبد الحقيقة ومزيج شهد الابدية .

— واذا شربته .. ماذا اصنع ؟

— سيجعلك قادرا على الطيران مثل عصافير الظهيرة ..

— اقتربى منى يا مليكة الحسن ، حتى المسك .

— لا تقترب فان جسدى من نار تحرق لامسها ، وتحوله الى قطعة من الحجر الأصم .

— لا عليك ، لمسة واحدة لا تضر كثيرا .

يا ربى لقد اصبحت حجرا املس .. اين يداى ؟ اين عيناى ، أننى لا أرى . لقد أصبح كل شىء اسود قاتما .. لقد فقدت قدمى ايضا ، ها هو جسمى قد تحول الى صخرة مستديرة .. ما الذى

فى يدك هذه ؟ لا تدق ارجوك .. اننى لست حجرا من تلك الاحجار التى تصنع منها تماثيلك ، انا حى مثلك سأتألم اذا انت فلقتنى الى نفسين ، سأنزف دما .. ارجوك لا تفعل .

ـ لا تخش شيئا .. انا مثال ماهر سأجعل منك تمثالا رائعا ويقول كل من يراه انه يشبهك تماما وانت انسان .

ـ ولكنى انسان .

ـ انت تضحك بالطبع .

ـ اقسم لك .

ـ لا تقسم ، فقط انظر وانا احطم منك جزءا ، ها هى قطعة منك ، ثم هذه ثانية هل تشعر بالألم .

ـ لا .. ولكن ..

ـ بعد ثلاثة آلاف دقة من الدقات على الحجر ستصبح تمثالا رائعا ..

ـ ولكنى .

ـ لا تخف .. هذه قطع لا فائدة منها ، ويجب ازالتها ، هنا نصنع لك عينين يكفى ان نشكل دائرتين ، ثم نصنع مكان الفم ، دائرة واحدة فى منتصفها خط .

هكذا تكتمل راس التمثال .

ـ ولكن الأنف ..

ـ لا فائدة منها ليست ضرورية .

ـ استدارة الراس مكان المخ .

ـ انت تتبع المدرسة القديمة التقليدية ، يجب ان يكون التمثال

له فلسفة خاصة تكفى ثلاث دوائر لتدل على الراس ، ومكعب فى الأسفل ليدل على الجسم لتصبح تمثالا رائعا .

— ولكن أين قدماى ويداى وجسدى . ؟

— لا تكن شكليا هكذا .

— شكليا . . اريد أن أكون شكليا أريد ان أكون مثل الناس ، انقذونى من هـذا المثال المخرف ، يا قوم ، يا ناس ، يا عالم . . لقدضاعت معالم انسانيتى . لقد حولونى الىمكعب وثلاث دوائر .

- ١٩ -

فى الصباح توجهت الى مكتبى وهناك بعد التحيات التقليدية ، استدعونى لحجره المحقق الذى قابلنى ، بعد الابتسامات البليدة التى ليست لها صلة بالواقع سواء واقع شعورى الشخصى او علاقات المودة بينى وبين هذا الرجل النحيف المصاب فيما يبدو ، بحساسية فى انفه ، جلست على مقعد مقابل لمكتبه ، ويبدأ الرجل يكتب وبالقدر الذى يسخو به انفه ، فيضطر دائما الى رفع منديله لتجفيفه ، بقدر ما بخل قلمه وظل جافا صامتا ، يجره بالقوة احيانا وباللين أحيانا اخرى ولكن القلم يحفر الورق ويترك آثارا مؤلمة فى جسد الورقة ، وتمتد يد المحقق الأصلع الى درج مكتبه ويستعيذ بالله من القلم المعاند فى الصباح والذى يعطله ويعطلنى ايضا . وأفكر فى ان أمد اليه يد المعاونة ، واعطيه قلمى ، ولكنى خشيت ان يعتبرها نوعا من الرشوة او ما يشبه ذلك ، او على الاقل رهبة منه وخوفا .

ودقائق تمر ، وانا خائف ـ كان الدنيا سوف تقع على راسى وراس اهلى ، ارتجف من الداخل رعبا وهلعا ، والمحقق يلعن الأقلام واصحاب صناعة الاقلام . وحضر عامل البوفيه بالقهوة المعتادة سرعان ما ارتشفها بسرعة وهو ما يزال يعبث فى القلم عله يكتب . ثم تذكرنى فجاة فقال :

ـ تشرب قهوة .

— شكرا ..

وبعدها رق القلم وبدا يكتب ، ولكن ما ان خط على الورق ثلاث كلمات حتى بشق نقطة كبيرة من الحبر ، نظر اليها المحقق وكانها كارثة قد وقعت ونقطة الحبر تزداد اتســاعا على سطح الورقة ، ويداه مشلولتان لايستطيع ان يمدها لكى يمسح النقطة ولا ان يرفع الورقة.

واخيرا اخرج من درج مكتبه قطعة قماش ملوثة بالحبر ومسح بها نقطه الحبر ، ثم ادرك ان انفه تتساقط منه النمط فرفع يده الى انفه ومسحه بنفس قطعة القماش الملوثة بالحبر ، ولكنه ادرك اننى انظر اليه ، فتلعثم ونطق بكلام غير واضح ، ونظر الى الورقة قليلا ثم مزقها والى بورقه اخرى وبدا يكتب .

سألنى عن اسمى وعنوانى وصناعتى واسئلة اخرى .. ثم وضع القلم جانبا واخرج سيجارة من درج مكتبه واشعلها وراح يجذب نفسا بتلذذ وهو يغمض احدى عينيه ويفتح الاخرى ، ناظرا الى ما كتبه باعجاب ، وانا جالس واعصابى مشدودة متوترة اكاد افر من امام هــذا الرجل الاصلع ، وشــاربه المربع والصفرة التى تعلو وجنتيه ورعشة فى يده اليسرى — كل هذا يبدو منفرا بغيضا الى نفسى .

حاولت ان اتذكر شيئا او افكر فى امر من الامور يبعدنى عن هذا التوتر ، ولكن يبدو ان هــذا التباطؤ من جانبه نوع من الارهاب النفسى حتى يجبرنى على الاعتراف ولكن بماذا اعترف ؟ اننى حتى الآن لا اعرف ما انا متهم به ؟

ودق جرس التليفون ، فتريث قليلا قبل ان يمد يده ويرفع السماعة ، وبعد ذلك سيل من كلمات العتاب . يقاطع من يحدثه ويتكلم ، ترك القلم والســيجارة واعتدل فى جلسته .. ثم راح

يتكلم الامانه .. الواجب .. سيرة الناس .. احاديث الناس .. وما كان وما لم يكن .. والزواج ليس العوبة فى ايدى شباب اليوم، الزواج عقد ارتباط ، والمحقق يقص حكاية زواجه .. ثلاثين عاما من الحياة الزوجية دون طلاق او حتى دون خصام ، لأنه يمارس حقه كرجل .. وهى تمارس وظيفتها كزوجة ، وتبدو قطرات عرق على جبينه فيدلها بسرعة بيده ، ثم يتذكر السيجارة ولكن للأسف لقد انتهت والحديث لا يزال فى فمه ، على السيدات باقى الاعمال، الرجل يأتى بالمال ، هذه امور نسائية بحته ، نقط أخرى من العرق، أليست لهذه المكالمة التليفونية من نهاية لا ، واسعار الارز والسمن واللحوم والأسماك .. اين هى من أسعار زمان .. ايام كان السمن بدون ثمن ثم ان الجلوس على المقاهى نوع من مضيعة المال والوقت، وغير من وضع السماعة وهو يروى حادثه وقعت لأحد الخلفاء الصالحين .. الرحمة ياسيدى .. اننى هنا أجلس امامك منذ الصباح ارجوك دعنى اوقع ثم اكتب ما تشاء ، أصدر حكمك على ودعنى إنصرف ، والتليفون يتألم والرجل لايزال يتشبث بالحديث بل ان صوته قد اصبح عاليا .

الرحمة ياقوم .. مجرد الرحمة .. ، ودخلت مجموعة من الزوار انهت المكالمة ، ووقف المحقق يرحب ويسلم ، وانتهزت الفرصة وقلت :

ـ غدا انشاء الله ..

ـ ان شاء الله .. مع السلامة .

وانصرفت بسرعة ، انطلقت من حجرته ، وجريت حتى الشارع. وكأننى سجين افرج عنه ، ولم أجد فى نفسى رغبة فى الذهاب الى المنزل ، فضلت السير فى الشارع ، ربما اهتدى الى نفسى فى

خلال سيرى بين الناس ، ربما استطيع ان اجيب على السؤال المحير :
من انا .. ؟ ما هو دورى وما علاقتى بهؤلاء القوم ، العالم كله ينطلق ، يتقدم ، ينفعل بما يصنعه ، يحارب نفسه ، يهدم نفسه .. يخترع الميكروبات وعقاقير لمقاومة الجراثيم .. وتنطلق الصواريخ تعبر الفضاء الواسع لتصل الى القمر ، وتدور حوله وتهبط عليه ..
اما انا .. آكل حتى تمتلىء معدتى بالطعام وانام حتى تتصدع راسى ، واحلم ولا شىء بعد ذلك ، ولكن هل هناك آخرون مثلى وأين ؟ أين الأيدى الناعمة التى لا تجيد الا الامساك بالقلم ؟ لابد انهم جميعا يشعرون بما اشعر ويعملون مثل ما اعمل .. يرقمون الأوراق أو يرتبون الأوراق أو يكتبون الأوراق .

ولكن من يصنع الأوراق ؟ من يروى الشجر ؟ ومن يرعاه حتى يكبر ، ومن يقطع الاشجار بعد ان تكبر ، ومن ينشر منها اخشابا ، ومن يصنع الأقلام والأوراق والمكاتب ؟

اننى اخطأت الطريق . اخذت طريقا ضيقا خانقا ، كلما سرت فيه ضاقت جوانبه ، بدلا من الأحلام وانتظار الجنيات يجب ان افكر فى شىء . ما الذى يحدث لو تركت هذا الطريق واخذت طريقا آخر ؟ ولكن بعد كل هذا السهر والاستذكار وبعد كل تلك الآمال التى غرست فى قلب امى واهل بلدى ؟ ..

وشعرت بهواء ساخن ، ومملوء بالاصوات ، وله رائحة ، وخرجت من بين احجار الطريق ، أربع جنيات جميلات يحملن فى ايديهن سلالا مملوءة بعناقيد العنب ، واشارت الى واحدة منهن فاقتربت منها ولكنها ابتعدت قليلا فاقتربت اكثر ، ومدت يدها بعنقود من العنب له بريق ، واشتاقت نفسى اليه ، ومددت يدى لأتناوله منها ، ولكنها ضحكت واسرعت نحو الأخريات ، فأسرعت نحوهن ، حاولت

ان ادس يدى في الســلال ، ولكنهن ابتعدن ضاحكات وصاحت احداهن :

ــ هل تحب عناقيد العنب ؟ .

واردت ان اجيبها ، ولكن صوتى امتنع عن الخروج ، فاشرت اليها بيدى ، فقالت الأخرى : .

ــ ها هو العنب ، معنا الكثير ولكن يجب ان تمسك بنا حتى يمكنك اخذه .

فحاولت ان اقترب ، ولكن مهما اقتربت فان المسافة مازالت بعيدة بينى وبينهن وضحكن منى وقالت الصغرى : .

ــ نحن لا نعطى ، يجب ان تصعد الينا حتى تاخذ .

ــ تأخذ حقك وتبقى لنا حقنا ..

واسرعت خلفهن حتى الحق بهن وقد اشتاقت نفسى لعناقيد العنب ، وهزتنى تلك السخريه منهن ، ولكنى اصطدمت بشىء . وشعرت بالالم فى راسى ، وسمعت ضحكا عاليا ، وصوت دسوقى وهو يقول : .

ــ انت نائم ؟ !

وابتسمت فى خجل ومشيت معه ، اخبرنى انه ذاهب الى شركة الآلات الزراعية ، فأبديت له موافقتى على مرافقته .

وهناك فى معرض الشركة المطل على الميدان ، كانت تقبع ثلاثة جرارات زراعية حديثه وكل منها له شــكل ولون خاص ، ويقف بطريقة مختلفة عن الاخرين ، اصغرهم له لون احمر صارخ ، وكل آلاته مغطاه برداء لامع ، والثانى ضخم الحجم فى استطالة .غطاؤه غير كامل تبدو من اسفله آلاته الدقيقة ، لونه اخضر ، اما الثالث فهو بين حجم الاول والثانى ، ربعة القوام اصفر اللون ، وفى ود اخذ

دســوقى يلف حول الجرارات الثلاثة ويربت على ظهرها بيــده ويتلمسها ، ويتحدث اليها وكأنها تسمع له وتفهم ما يقوله ، ووقف بجواره احد موظفى الشركة ، يبدو انه يعرف دســـوقى جيــدا فتركه يتصرف بحريته ..

ولم اتحرك من مكانى ، وقفت انظر الى ما يفعله دسوقى ، واستمع الى ما يقوله موظف الشركة ، وانتظر حتى ينتهى كل هذا واعود الى المنزل ، ولكن دسوقى طالت وقفته ، وطال حديثه مع الموظف ، واتى آخرون وتحدثوا مع دســوقى ثم اتوا اليه ببعض الأوراق ، وسرعان ما دخل دسوقى فى جدال معهم ، هم يحاولون اقناع دسوقى بشىء ما ، بينما هو متشبث برايه مصر عليه وتقدمت من دسوقى فى محاولة لفهم الموقف او الاستئذان للانصراف ، ولاحظت انه يريد نوعا من الجرارات وهم يريدون له نوعا آخر ، ولم أستطع الحديث فى هذا الموضوع لاننى لا افهم فيه ، واخيرا وافقوا على طلبه واسرع بتوقيع الأوراق ودفع لهم مبلغا كبيرا ، ولم أكن اتصــور ابدا ان دســوقى يملك مثل هــذا المبلغ او حتى نصفه ، ودهشت كثيرا ، وكأنه لاحظ ذلك فقال ضاحكا :

– تحويشة العمر ..

وضحكت انا ايضا وقلت بعض الكلمات المناسبة ثم انصرفنا . وفى الطريق اخذ دسوقى يتحدث بحماس واوضح لى اهمية الجرارات الثلاثة الجديدة وكيف سمع بوصولها ، ودفع بالفعل مقدم ثمن الجرار الصغير الاحمر الذى سماه (نمر١) لانه صغير وسريع وقوى ، بالاضافة الى قلة استهلاكه وسهولة صيانته ، فقاطعته قائلا :

– ولكن كيف تدفع ثمنه يادسوقى ؟

– على اقساط سنوية ولمدة خمس سنوات .

ــ ولكنه غالي الثمن ، هل يدر دخلا معقولا اذا ؟
فضحك دسوقي وهو يقول :
ــ سر المهنة يا استاذ ، ولكنك صديقي منذ مدة فكيف لم يمكنك معرفة ذلك ؟
وابتسمت معتذرا عن قلة ادراكي واعدا اياه أن أكون أكثر حرصا على معرفة هذا الامر في المستقبل .
ولم احاول ان اسأل ثانية في هذا الموضوع خشية احراجه ، فالأرزاق نوع من الأسرار بالنسبة لهـذا الرجل الذي لا يملك الا عمله ، وآثرت ان اسكت واترك له حرية ان يتكلم أو يصمت هو الآخر . ولكنه انطلق في الحديث حول الادوات الزراعية الحديثة ، ومدى ما تحققه من ربح وفائدة سـواء لصـاحب هـذه الأدوات او للزراع الذين يسـتأجرونها ، فالحقـل الذي تبلغ مسـاحته عشرة افدنة كان يسـتغرق خمسـة أيام كاملة تدور فيهـا الماشية ليـلا ونهـارا في سـاقية عجوز تظل تنـوح وتبـكي طوال هـذه المدة ، بينما اليوم وبواسـطة آلة ري صـغيرة تلحق بالجرار يمكن ري هذا الحقل في نصف يوم فقط ولن يتكلف هذا سـوى جنيهين تقريبا ثمن الوقود ، بينما يتقاضى صاحب الجرار أكثر من خمسة جنيهات .
وضحك دسوقي حينما نطق بالجملة الأخيرة وكأنه فطن الى انه اذاع سر المهنة وأنهى حديثه بسرعة .
ودعوت دسـوقي الى تناول الغداء في منزلي اكراما للجرار الجديد ، وفي نفس الوقت هربا من أسئلة زوجتي أو امها .
وفي اثناء الطعام اخبرني دسوقي بأنه سيرسل الجرار القديم الى ورشة بالقاهرة لأنه يحتاج الى بعض الاصلاحات غير المتوافرة في أسيوط.. وأعرب عن أسفه لأنه لن يتمكن من الذهاب مع الجرار

حتى يشرف بنفسه على الاصلاحات التى تتم بالصورة التى يريدها .. ثم سألنى :

ــ ايمكن ان تسافر الى القاهرة ؟

ــ ربما ..

ــ لو سافرت لأمكن توصية عمال الورشة على الجرار وملاحظة عملهم .

ــ افكر يا دسوقى .

وكان السؤال مفاجأة لى ، فلم يكن فى نيتى السفر الى القاهرة ، ولم تكن بى رغبة للحصول على اجازة ، ولكن سؤاله .. كان اشارة البدء فى التفكير بضرورة الأجازة والسفر الى القاهرة والابتعاد عن مكان العمل فترة أستعيد فيها نفسى ، وارتب الأمور فى عقلى . ثم ان القاهرة مدينة النور ، ساجد فيها مرتعا خصبا للترويح والتغيير ، سأزور فيها أصدقاء غابوا عنى طويلا واشتقت الى رؤيتهم ، اتسكع فى شوارعها وحواريها .. ارى أهل القاهرة وهم يعيشون . ارى أياما كنت أعيشها أدور حول الجامعة ، استنشق عبير رائحة الماضى وذكرياته ، أقابل المسئولين هناك علهم ينقلوننى القاهرة أو بلدا آخر قريبا .

فوق النهر ، أسفل الكوبرى ، فى دوامة الماء ، اجد عروسا تسبح وترتدى ملابس العرس وفى مركب فرعونى له شراع ابيض اجلس بجوار العروس ، واسمع انشودة الليل ، وضوء مصباح فى أعلى الكوبرى يلقى شعاعه فى الماء وينام على سطحه ، مثل سمكة طويلة ، وعروستى تبتسم تمد يدها وتضحك وتلمس الماء ، واصبعها تتساقط منه قطرات من الدم ، مثل زيت أحمر يضعونه فى خزان الجرار فيدور ويسير على السمكة التى تصرخ من الألم . عروستى

حزينة لان السمكة ماتت ، وانطفا المصباح ونظر الشرطى المكلف بحراسة الكوبرى ليرى ما حدث فاشرت اليه بالصمت فارتعد ثم نظر ثانية وانا اخنق العروسة وصاح :

ـ ابتعد يامجنون .

وضحك دسوقى وقال :

ـ اتفقنا ، تسافر فورا ..

فاجبته وانا اخنق عروستى :

ـ ان شاء الله .

- ٢٠ -

سافرت الى القاهرة ، بعد أسبوع من حديثى مع دســـوقى ، قضيته فى الذهاب كل يوم الى مكتب المحقق ، تحملته وأنا أمنى النفس برحلة جميلة الى العاصمة ، صبرت مثل أيوب ، تكلمت مثل أرسطو .. كنت أردد فى خلال جلســـاتى الطويلة أمام المحقق كلمات عن العدالة والظلم والصبر والايمان ، حتى انتهى المحقق وأكد على أنه لا داعى لحضورى بعد ذلك ، صرخت من الفـــرحة وخرجت عدوا حتى لا يرجع فى كلمته

وفى القطار وأنا مسافر جلست بين ضجيج الدرجة الثالثـــة أرتب فى عقلى ألف ميعاد وزيارة ورحلة قصيرة ، أقرر أن أسافر الى بلدتى خلال الأجازة ثم أعدل عن هذه الزيارة لما تسببه لى من ألم نفسى .. وأقرر أن أزور الجامعة وأدوس خلال دروبها ومدرجاتها أتطلع الى وجوه زملاء المستقبل .. ثم أرجع عن هذا القرار ، فالزمن قد تغير ولن أجد من يعرفنى ولا من أعرفه بين الاساتذة والسعاة فلم يكن بينى وبينهم تعارف ، بل اننى لا اذكر اننى تحادثت مع أستاذ منهم فى أمر من الأمور الدراســـية أو غيرها . ولكن الذى يستحق الزيارة فعلا . الحى الذى كنت أسكن به وأنا طالب .

وصلت الى المحطة ، كنا فى بداية الربيع ، أناس كثيرون ، صفير قطارات راحلة أو قادمة ، باعة الصحف ينادون على شىء هام ، حركة سريعة غير عادية ، أعلام كثيرة ملونة ، القادمون فقط من

البلاد الريفية يشعرون بضجة المدينة ، شعرت بالارتباك ، رغم ان هذه ليست أول مرة أنزل الى محطة مصر ، فقد قضيت أربعة أعوام اتعلم في جامعتها . الناس تدفعني الى الأمام والخلف وانا اتطوح أنظر الى علامات الأرصفة ٠٠ حمال عجوز يشد مني الحقيبة ويصرخ، وعيناي تبحثان عن طريق الخروج لا أريد السؤال ، الحمال تعب من الشد والصراخ ٠ تركني حانقا ٠ جرفني تيار المرور ، وسرت بين مجموعة ، ولكنهم كانوا ينتظرونقطار بور سعيد ٠٠ القطار تأخر صراخ الأطفال يعلو ،٠الأمهات غاضبات قلقات ، الرجال تبدو عليهم العصبية والارتباك ، الحقائب كثيرة والأجولة والسلال والملابس جديدة ثقيلة لامعة ، بائعو (السميط) والغازوزة يحومون حول الأطفال .. مكبر الصوت يثير عاصفة من الضجة لا يمكن فهم كلمة مما يقوله يتردد مرة اخرى بلغة اجنبية ، صراخ مجموعة من الطلبة في رحلة ، يا للأسف سقطت الجرة وتحطمت على رصيف المحطة ، ارتفع عويل المرأة ، تقدم منها شرطي وراح يسبها ، حام حولها بعض الحمالين ، والجبن قد اختلط ببقايا الجرار المحطم ، سال اللبن في المجاري الدقيقة لبلاط الرصيف ارتفع صوت خشن من مكبر الصوت ، تحركت بسرعة مجموعات هائلة نحو صوت صفير قطار قادم ، وخرجت الى الميدان .

الميدان واسع كأنه نصف مدينة أسيوط ، سيارات بكل الألوان والأحجام ، ترام ، اشارات مرور ، وضعت الحقيبة ووقفت ابتلع ما حولي واهضمه ، فيالقرى يقولون ان أهلالقاهرة تحميهم بركات أولياء الله الصالحين ٠ حقا ٠ كيف يقود المرء سيارة وسط هذا الزحام والصراخ ٠ ورمسيس يتطلع الى السماء فيشعر بلهيب الشمس ٠ وينظر الى ماء البحيرة ويقفز الى الماء ويستحم ويلعب برذاذ الماء ، ومن حوله مجموعة الصبية يتلقفون الرذاذ في متعه ، ويقبضون عليه بأيديهم ولكن الماء يفر ويذهب الى أقدام رمسيس

ونساء وفتيات ، فى ملابس جميلة ملونة ضيقة .. أنا أحب الملابس الضيقة على أجساد النساء ، رمسيس يرتدى سروالا قصيرا ضيقا وصدره عارى . مثل أحدث موديلات الملابس .

صرخ رجل عجوز فى فرحة :

ـ القاهرة أم الدنيا .

سمع صراخ العجوز مجموعة من الناس تجمهروا حوله ، تقدم منه شاب وقدم له مجموعة من الصور ، دقت الطبول ورقص العجوز وهو يعرض لنا الصور ، اهتزت صورة الأهرام ثم سقطت بجوار البرج الذى ضحك ، وتقدم الشاب وساعد الأهرام على الوقوف فصفق الحاضرون .

وركبت السيارة . متجها الى منزل أحد أقربائى . الذى استقبلنى ببشاشته المعهودة ، وصوته الجهورى الريفى ، وبطعامه الدسم وبحديثه الشيق ، شعرت بالراحة وأحسست بالأمان وجلست أتحدث اليه عن نفسى ومخاوفى ، وشكوت له سوء حظى من الزواج والعمل ، وفقر النفس ، وضعف الارادة ، ودار الحديث حول (دسوقى) الذى شجعنى على الحضور الى القاهرة . وجاء الليـل ولم ننم . كان الحديث يجر ساعات الليل . هو يتحدث عن زوجته وما حدث له ، وأنا أقص عليه ما حدث لى وعن سالمة وزوجتى وأحلامى .

وفى خلال حديثى معه .. أحسست أنه يعانى من نفس ما أعانيه، وانه يعيش أيامه مثلى ، يحاول التخلص من مشاكل علقت به وان يجد نفسه ، ربما يرجع ذلك الى تقارب البيئة التى ولدنا فيها ونشأنا بها وتعلمنا خطواتنا الأولى على أرضها ، وكانت لهذه البيئة المشتركة نفس التأثير فى أحلامنا ، تقيدنا خطوط وهمية من الآمال ، وتمنعنا من الانطلاق أسلاك شائكة حاول الأهل أن يحيطونا بها ، فقيدتنا الآمال وسجنتنا الأسلاك ، وظللنا ندور فى خلالها ، نذهب الى المدرسة لنتعلم كيف ننجح فى الامتحان ، ويأتى العام الجديد وليس

فى عقولنامن دروس العام الماضى قليل أو كثير ، كنا نذهب الى المدرسة لكى نحصل على شهادة لندخل الجامعة ونذهب الىالجامعة لنحصل على شهادة تعطينا الحق فى المكتب والكرسى والوظيفة والتليفون يدق والأوراق يأتى بها ساع عجوز ، وطوابير الناس يقفون أمام الباب فى انتظار لقاء قصير مع سيادة الموظف ، والأهل يتحدثون عن سلطته ونفوذه فى الجهاز الحكومى ، ويأتى الى الأهل أناس آخرون يطلبون التوصية حتى يمكن نقل قريب لهم من مكان الى آخر أو اعفاء أبناء لهم من الخدمة العسكرية أو الحاق أحدهم فى كلية الشرطة ، وما الى ذلك من واجبات تفرضها الوظيفة الكبيرة التى حصل عليها (الأفندى) بعد الجامعة · ولكن للأسف لم يتحقق كل هذا ، فلا توجد وظيفة كبيرة ولا مكتب ولا حتى تليفون ، والساعى شاب صغير منتسب لاحدى الجامعات ، ويدرس بالليل ، ويتحدث بقليل من الكبرياء فلن يبقى عليه أكثر من عام ويجلس بجوارى ·

فى الصباح ·· اصطحبت صديقى ، ذهبنا الى الورشة لنرى ما تم عمله فى جرار دسوقى ، وكانت الورشة فى احدى الحوارى المليئة بالأطفال والدجاج والأوز ونسوة كثيرات يجلسن فى صمت ، وامام كل واحدة منهن اكوام من الأطعمة ، والحارة مملوءة بقطع السيارات المفكوكة ، وبأدوات الخراطة والحدادة والزيت والشحم والماء القذر ، وهدير الآلات وصوت المدقات والمطارق ، وغناء وموسيقى فى جهاز الراديو وعمال يجلسون بجوار آلاتهم يحتسون الشاى ، وآخرون يطرقون على قطع من المعدن وشرارات نار تتطاير من اجهزة اللحام .

واخترقنا كل هذا حتى نصل الى ورشة المعلم جابر الذى يتولى اصلاح الجرار ، وهناك وجدنا (فهدا) مجرد هيكل حديدى قابع بجوار الورشة التى لا تزيد عن حجرة صغيرة · وفى الداخل صبى فى حوالى العاشرة ويقف بجوار مائدة عليها بعض الأدوات وهو

مشغول بتطع قضيب من الحديد ويتغنى باحدى اغانى الحب، ولمبة كهربائية مضاءة ، رغم انتشار ضوء النهار وحائط الورشة ملىء بالكلمات (صلي على النبى) ، (الدفع مقدما) ، (الأسطى جابر وولده) ثم بعض الكلمات الأخرى كتبت بالزيت الأسود ، وبعد ذلك الحائط ملطخ ومتسخ ، ثم أجهزة جرارات مختلفة ملقاة باهمال ، برميل به ماء · بعض المقاعد الحديدية السوداء ، تقدمت من الصبى وسالته عن المعلم جابر ولكن الصبى لم يرد ، فاضطررت الى الاقتراب أكثر ووضعت يدى عليه وسالته مرة أخرى :

ـ المعلم جابر يا أسطى ؟ ·

واعتدل الصبى في وقفته ، ومد قامته باقصى ما استطاع بعد أن ترك ما بيده ، وأخذ يرحب بنا ويقول :

ـ أهلا ، أهلا ، اتفضلوا ··

ونظـرت الى حيث أشار بيده فـوجدت الكراسى الحديدية السوداء ثم انطلق الى خارج الورشة ، ونادى بأعلى صوته طالبا الشـاى بسرعة ، وعاد مرة أخرى ، واصر على أن نجلس ، ولـكنه وجد أننا ننظر الى الكراسى بشيء من الامتعاض ، كف عن الالحاح بالجلوس ، وعاد الى مائدته وهو يقول :

ـ أهلا وسهلا ·· أي خدمات ؟ ·

واعجبنى منه ثقته بنفسه وترحابه الكريم وبشاشته فسألته :

ـ انت ابنه ؟··

فابتسم الصبى وأشار الى نفسه وهو يخبط على صدره :

ـ رشاد أبو الدهب ، صبى المعلم جابر ·

وأخذت ، كما هي العادة في مثل هذه الحالات ، أتحدث الى رشاد ، وانا ابتسم في رقة وتواضع ، وسألته عن تعليمه ولماذا لم يتفرغ للدراسة . كم عدد اخوته وكم يتقاضى من الأجر ولـكن اجابته تركت في نفسي الما عميقا واحساسا بالخجل من تظاهرى

بالرقة والتواضع . فهو يعول أسرة مكونة من أمه وخمسة من الأخوة كلهم فى المدارس ، وهو أيضا يذهب الى المدرسة ويصل أجره فى اليوم الى سبعين قرشا وأحيانا يصل الى جنيه كامل ، ثم تحدث عن فريق الكرة الذى كونه من صبية الورش فى الحى ، وانطلق الغلام يتحدث فى ثقة عن اخوته وعن فريق الكرة وعن ذهابهم الى السينما والمسرح ثم اختتم حديثه باخبارى انه سوف يفتتح ورشة خاصة فى المستقبل مثل المعلم جابر الذى كان صبيا مثله من قبل ، وبين كل جملة يرحب بنا ويسألنا عن الصحة ويعتذر عن تأخر الشاى حتى وصل المعلم جابر ، وهو رجل قصير نحيف يبدو أنه لم يفق تماما من النوم . ولما عرف أننا من قبل دسوقى رحب بنا وارسل (رشاد) ليحضر الشاى بنفسه وكراسى من المقهى المقابل .

انتهت زيارتنا لورشة المعلم جابر . بعد أن علمنا أن الجرار سيفرغ من اصلاحه بعد أسبوع وأنه حريص على ارضاء الأسطى دسوقى ، ولا يهمه المال بقدر ما يهمه اتقان صناعته من أجل سعادة دسوقى .

وعبرنا الشارع الملىء بالضوضاء و[illegible] والنساء [illegible] على الأرصفة ، الى الشارع الواسع ولكنى أحسست أنى تركت جزءا من نفسى مع الأسطى الصغير رشاد . ولم تذهب صورته وهو يحدثنى رغم أحاديث صديقى مصطفى ، والاعلانات الملونة [illegible] بالنساء والبنادق والأسماك ونداء بائعى الفول و[illegible] والجرائد وصوت عجلات المترو ، بل ظلت صورته عالقة فى ذاكرتى تسير معى الشارع وتخطو على الأرصفة وتشاهد معى فترينات المحلات المليئة بالصنائع .

وطاف بى مصطفى فى القاهرة كأننى زائر غريب لم يرها من قبل ، وضاع اليوم فى هذه الجولة أما فى اليوم التالى فقد آثرت أن أقوم بجولة أزور فيها بعض الأصدقاء ، ولكنى لم استطع

تحقيق هذه اللقاءات بالصورة التى أريدها ، فأحدهم بحثوا عنه فى كل أنحاء مبنى الوزارة ولم يجدوه وآخر قالوا لى أنه فى السينما كالمعتاد ، وثالث فى أجازة مرضية ، والأخير وجدته قد شاخ وجلس على مكتبه يتثائب فى خمول وليس لديه الا :

ـ زمن ! أيام زمان ٠٠ فاكر ؟ ٠

وكأنه قد مضى على أيامنا عهدا طويلا وأصبحنا مجرد ذكريات٠ فتركته قبل أن تأتى القهوة التى دعانى الى تناولها معه ٠ وتذكرت صديق الدراسة (محمود) فقمت بزيارته فى المدرسة التى يعمل بها ووجدته يجلس فى فناء المدرسة يتصفح جريدته بهدوء ، ولما سألته عن أحواله قال :

ـ الأمور على ما يرام ٠٠ حمدا لله ٠

تركته هو الآخر يقرأ أخبار الدنيا وانصرفت ، وعدلت عن فكرة زيارة بقية الزملاء فلن يكونوا خيرا من هؤلاء ٠

وجذبتني صورة رشاد صبى المعلم جابر ، وشدني حماسه وصبره وجديته ، فذهبت اليه أشرب الشاى واستمع اليه وهو يشرح لى تركيب احدى الآلات او وهو يقوم بتجميع أحد المحركات وقضيت بقية أجازتى فى القاهرة بين زيارتى لورشة المعلم جابر والحديث مع رشاد وصحبه صديقى مصطفى فى المساء لقضاء أمسية فى مكان ما ٠٠

ومن خلال زياراتى اليومية وحديثى مع الأسطى جابر أو رشاد انبثقت فى عقلى فكرة ٠٠ لا أعرف كيف أصرفها أو أنفذها أو أبدأ بها حاولت التحدث مع مصطفى ومناقشته فيها ولكنى لم أستطع ، وكلما ذهبت الى الورشة ازدادت الفكرة الحاحا الى عقلى ولكن كيف ارتبها وأنظمها ؟ لا أدرى ٠

أقفال من حديد تمنعني ، أحمال على ظهري ، افكار خبيثة تحط من عزيمتي ، رغم ان الفكرة بسيطة وتحتاج الى بعض التدبر وشيء من العزيمة وقليل من الشجاعة .

أين الجنيات لم لا يظهرون ؟ أين حاملات الأحلام ؟ الطعام فقد رائحته .. الشراب ذهبت الحاجة اليه .. النوم استحال .. التفكير غير مرتب ، أين أنت يا جنية منتصف الليل ؟ أين خاتم السعد .. من ؟ .

ـ أنا عبدك .

ـ عبدي ..

ـ الأمر لك وعلى الطاعة .

ـ ومن اين اتيت والى اين وماذا تريد ؟

ـ انا من داخل تجويف عقلك جئت لأنفذ لك رغباتك .

ـ اذا أدخل الكهف وأحضر لي جرارا مليئة بالذهب .

ـ أدخل أنت أولا ..

ـ ولكنك تقول أن عليك طاعتي .

ـ نعم .. أدخل الى الكهف وسأتبعك لأنك سيدي .

ـ ولكني خائف .

ـ وأنا اكثر منك خوفا .

وصرخت امرأة عجوز وقذفته بحجر فجرى العملاق وهو يعوى من الألم .

- ٢١ -

حينما كنت أذهب أنا وصديقي كمال الى دار الشيخ كنت صغيرا ومحدث حب ، أسعى جاهدا الى نيل حب فتاة صغيرة ، واستعنت بالشيخ وبجن الشيخ كي أحصل على قلب الفتاة ولكن لم ينجح الشيخ ، ولم تستطع جنياته ابلاغ رسالة الحب الذى ظل دفينا فى صدرى ، وظلت كلمات الغرام مشنوقة فى طرف لسانى ، وسرت وراء سراب خادع سنوات ما كان أجملها لو اتخذت مذهبا آخر ، وقلت الحب لمن أحب دون وسيط .. ولو كان عم مغاورى حيا لحدثنا عن نفسه وعن قصته ولكنه ذهب وأخذ السر معه ولم يبق الا خيالات الحقيقة المشوشة التى نسجت قصة الجنية . وأصبحت القصة مثل طوق النجاة يتعلق بها أناس من أمثالى غارقون فى الوهم ويعشقون الأمل ويسألون الأحلام أن تأتيهم بالنجاح حتى الباب دون جهد أو عرق . وكما عشقت سراب الحب ولم أذقه ، عشقت سراب النجاح ولم أحققه ، مشيت فى درب مظلم يؤدى الى دار رجل ذكى استغل ضعف البشر وراح يدور حول بخور الوهم متمتما ببعض الكلمات سائلا الجن الحب للشاب ، والولد للعاقر ، والزوج للعانس . والمال للفقير . وقتل الماشية المظالم ويأخذ فى مقابل سؤاله بعض النقود وحفنة من عرق الأجير ، ولمسة من شرف امرأة ، وان استجاب القدر للسؤال كان خيرا وبركة ، وان جاء العكس فالجن فى حاجة الى المزيد والصبر مفتاح الفرج .

وبهذه العقلية عشت حياتى حتى الآن . سالت الشيخ فسألنى النقود ، سألت الأحلام والوهم فاعطانى قبض الريح ، واذا ما فتحت عينى ورأيت يدى خاوية لعنت الحظ والزمن والأيام .

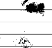
لا ، لن أندفع أكثر من هذا فى طريق أعرف أنه مقفل مظلم ملىء بالأشباح ، يجب أن أصنع طريقا جديدا الى النور .

والقطار العائد الى أسيوط ملىء بالحركة ، وحولى بعض الطلبة الذاهبين الى الجامعة ... يتحدثون ويضحكون . حاولت ان أندمج فى الاستماع اليهم ولكنه كان حديثا ضـــحلا فآثرت العودة الى أفكارى .

اشترى الجرار من دسوقى !! .

أنا لا أملك ثمنه ولا حتى جزءا من ثمنه ولكنى سوف أدفعه على أقساط مثل ما فعل هو حينما اشترى الجرار الجديد ، هذه هى الخطوة الأولى وبعدها الاستقالة ، نعم أترك العمل الذى لا أحبه دون أسف أو تردد وأعود الى قريتى راكبا جرارا أحرث الأرض التى ولدت فيها وعشت عليها وتركت أمى تجوس فى وحلها وجلست أنا على مكتب خشبى أرقم الأوراق .

ثم تندفع الأمور من تلقـاء نفسـها ويأتى دورى فى الحيـاة الحقيقيـــة طالمــا انا امســكت بالخيط الحقيقى من بدايتـه ومجـرد وجـودى فى القـرية هـو بداية الطـريق .. عمــل اتكسب منــه ، احرث الأرض وأســوق الجرار ، ولـكن الأجر معقــولا .. اننى اتقاضى حاليا حوالى الثلاثين جنيها فى الشـهر فاذا اسـتطعت ان اتكسب جنيها فى اليوم لا استطعت ان احقق ربحا بالتأكيد هذا بخلاف المسكن المجانى والنفقات المخفضة، هذا من الناحية المادية أما من النواحى الأخرى ، فسوف أشرف على نادى القرية واستغل معلوماتى التى درستها فى الجامعة فى خدمة اهل القرية . وعلى هذا أكون قد استطعت الاستفادة من مدة وجودى بالجامعة .



نعم هذا دورى بالتاكيد ، ايجابية العمل وجديته وفوائده هى الأساس الحقيقى لقياسه وتقييمه ، ولكن هل هذا حقيقى ام مجرد تخيلات ؟ هل حقا أستطيع الاستقالة ؟ ماذا تقول زوجتى وأمها ؟ هل يوافقان ؟ وهل يوافقان على ذهاب زوجتى معى الى القرية ؟ وان لم يوافقا فهل ارغمها على الذهاب معى ؟ ولكنى لا احب الحياة مع زوجة كارهة المعيشة معى اطلقها ؟ ولكن الطلاق صعب مهما كانت الأمور ، بل هو سلبية لا أحب أن ابدا به أول الطريق الجديد، حقا لقد بدات المشاكل ..

وأمى ، هل توافق أن ترى ابنها اسطى يرتدى «عفريته» ملوثة بالشحم والزيت وحتى لو كانت بدلة جديدة دون شحم أو زيت .. هل ترضى بأن يكون وحيدها بعد كل هذه السنوات من الدراسة وبعد كل هذه المصروفات .. وبعد كل هذه (الأفندية) يعود الى القرية يركب جرارا ويحرث الأرض بأجر « لا .. لن ترضى وسوف تلطم الخدود وتبكي وتولول على ابنها والكارثة التى حلت بعقله ، وبخيبة الأمل التى اختارتها دون خلق الله لتقع على رأسها .

– بعد كل هذا يأتى ويعمل أجيرا ، ترملت من أجله ، تحملت كلام الناس ، جعت وحرمت نفسى من زاد الدنيا من اجل تعليمه . ثم يأتى هذا الولد الخائب ويترك وظيفته المحترمة فى الحكومة ..

والله لابد انه (عمل) عين حسود وأصابتنا ، صرفت عليه ثمن عشرة قراريط وجاموسة ليتعلم وينفع نفسه .

– لا أحد يجد مثل وظيفته ابدا ، بل لا يستطيع احد ان يحصل على ربع مركزه فى الحكومة .

– يجب أن نذهب الى السيد البدوى ...

– والى السيدة أم هاشم و ...

– وكل أولياء الله الصالحين .

ـ وندعو الله ٠

ـ أن يشفى عقله ٠

ـ ويتوب عليه ٠

ـ ويرجع الى عمله بالحكومة

ـ انشاء الله ٠

ـ باذن الله ٠

ولكن رغم كلمات خالى ووعده بأن الله سيتقبل دعوتها ويفسد الجرار ويرجع الأفندى الى وظيفته ، الا انهـا تظل تبـكى وتقص قصتها مع الولد الخائب على كل من جاء يسألها حقيقة الأمر ،وهى ترفع راسها الى السماء تضرع الى الله أن يخفف عنها هذا البلاء ، ويرحم ترملها وعجزها ولا يفرح فيها احد من أهل القرية .

ولن يسكت أهل القرية ، سيقذفوننى بكلمات مسمومة ، وربما أدى الأمر الى مقاطعتى، ربما أشاعوا عنى اننى مخبول وسيرفضون أن أحرث لهم الأرض ، أو أسقى لهم الـزرع ويضـــحك أحدهم ويقول :

ـ أفندى !! لا يفهم فى أمور الفلاحة ٠

يا قوم لست افنديا . فهذه ليست طائفة او جنا او حزبا ، انا مثلكم ابن امرأة تجمع روث البهائم ، أنا ابن الطين ٠٠ ابنكم ٠٠ لى حق الحياة فى شمسكم دعوا قدمى فى الطين لأنبت سنابل قمح ياكلها عصفور ويغنى أغنية حب ، ليعود السلام الى القلب ، وأنبش باظافرى فى التراب ، حتى أعثر على قطعة شمس نطهيها فـوق النار ونأكل منها حتى الشبع .

ـ كبريت من فضلك .

واحسست ان يدا تهزنى . كانت لسـيدة جميلة تجلس بجوارى ، ترتدى ملابس قصيرة اكثر من اللازم وفى فمها ابتسامة وسيجارة ، شعرت بالخجل وابتسمت فى بلاهة وانا اقول :

– آسف لا أدخن .

– خسارة .

وقذفت بالسيجارة من نافذة القطار ، ونظرت حولى فلم اجد سوى هذه السيدة أو الآنسـة لا أدرى ، ثائرة جدا تتحرك فى عصبية ، وصحت أحاسيسى على رائحة هذه الأنثى الصـارخة ، شعرها يميل الى الاصفرار ، تشوبه بعض الشعيرات الفضية ، فمها دقيق مصبوغ بالأحمر القاتم ، بشرتها بيضـاء ، بعض الخطوط الزرقاء حول عينيها واسفلها ، أصابعها دقيقة بأظافر طويلة طليت بعناية ترتدى ثوبا قصيرا ويظهر من أسفله ثوبداخلى محلى بنقوش جميلة ، وبدت ساقاها من خلال جوربها الحريرى بيضـاء يشوبها شىء من الحمرة .. ضئيلة الحجم كأنها قطة نافرة او كأنها فرس رهان ، وديعة كأنها غزال ، بها ما يجذب البصر ويشده ،بها مايجعل الانسان راغبا فى القسوة عليها . قالت بعصبية :

– شىء غريب ! ..

– ما هو ؟

– الجبل ، اتمنى أن أرى الجبل من قرب .

ونظرت من النافذة ، فالقطار عادة يمر على جبال كثيرة متكررة طوال الطريق ، ولكنى لم أجد جبلا ، بل حقولا ملآىبالزرعالأخضر فأرجعت بصرى اليها وقلت فى أدب :

– بعد محطة واحدة ممكن لحضرتك رؤية الجبل .

وتظاهرت بالفـرحة وكأنى بشرتها بشرى عظيمة ثم وقفت تتطلع من النافذة تدلى رأسها بنشوة ويتطاير شعرها الأشقر كعلامة

التعجب ، وترفع احدى قدمها وتدقها بحماس ، ولم أستطيع الا أن اقف بجوارها أمام النافذة ورحت أشرح لها أنواع النباتات التى تنمو فى الحقول وهى سعيدة او تتظاهر بأنها لأول مرة تسمع عن كل هذا .

ولكنى رغم عدم تصديقى للمظاهر التى تبديها ، سعدت بهـــا وتحمست فى حديثى وانطلقت أعدد لها فوائد هذا الزرع وقيمة هذا النبات .. وطال الحديث فجلسنا نستريح ، وتحـــول من أنواع النبات الى اسمى وعملى وعمرى ثم السؤال التقليدى عن الحـــالة الاجتمــاعية . ولكن لم أخبرها بأننى متزوج ، وعرفت أسمهـــا (زيزت) وهى طالبة ولكنها تعمل فى المسرح والسينما وتظاهرت بالدهشة والسعادة التى غمرتنى لجلوسى بجوار نجمة من نجوم المسرح ، وعبرت عن أسفى لعدم مشــــاهدتى لهـا على المسرح . واخبرتنى بكبرياء انها ذاهبة الى الأقصر لتؤدى دورا فى فيلم اجنبى لمدة ثلاثة أيام .

وان كان تعارفنا تم بسرعة وعلى أسس من الخداع أو على الأقل من التهويل .. فقد أحسست بشىء ما نحوها ، ويبدو أنهـــا هى الأخرى شعرت بشىء من ذلك ، فبدت أقل عصبية واكثر انطلاقا ومرحا وكرما ، وأخـــرجت من حقيبتهـا بعض الأطعمـة ودعتنى لأشاركها تناوله .

دعوتها لعربة الشاى لتناول بعض المشروبات ، وحاولت هى .. فى أول الأمر . التظاهر بالدراية الواسعة والمعرفة بكل أنواع المشروبات وبكل التقاليد المرعية فى مثل هذه العربات الأنيقـــة المملوءة بالسياح من كل البلاد .. ولكنها فشلت فى أول تجربة ولم تسعفها الكلمات الأجنبية التى حفظتها ، وانقذت الموقف وطلبت من الساقى عصير الليمون ، وابتسمت هى فى ارتباك وحاولت أن تقول شيئا ولكنها عادت وآثرت السكوت .

كان فى عقلى أفكار أود ان أصوغها فى كلمات وألقى بها خارجا ولا يهمنى من يسمعها .. وسواء أكانت (زيزت) تفهم ما أقول أو لاتفهم .. فقد استمعت جيدا وهى تهز رأسها فى ثقة وانطلقت أتحدث واحكى وأقص وأترجم خواطرى واحلل الأمور ، واحيانا أجد نفسى قد انسقت بعض الشىء وقلت كلاما غير مفهوم.ولكنهـا كانت تهز رأسها مستحسنة ما اقول .. وجاء الساقى يرفع الأكواب ويأتى بأكواب الشاى الساخنة مع قطع الحلوى ، وأسرعنا بالتهامها والحديث يندفع وانا أروى ذكرياتى وهى تنصت وأحيانا تؤكد لى أنها معى وتؤيدنى ببعض الكلمات .

ووقف القطار فى محطة أسيوط ، وراودتنى نفسى ألا أهبط ، كانت التجربة مع (زيزت) تستهوينى . فلم يسبق أن حدثت فى حياتى ولست واثقا من حدوثها فى المستقبل ، وتشبثى بها الآن ليس أمرا شاذا بل تشبثا حقيقيا لانسان كان يرى الفتيات الجميلات فى أحلامه فقط .

وزيزت فتاة جميلة ولطيفة وممثلة وتستمع الى فى اهتمام وهى فوق ذلك لا تتكلم كثيرا . ثم ان يوما آخر بالأقصر معها ، لن يضيرنى ولن يؤجل مشروعى ولن يعوق تقدمى بل سيساعدنى ويمدنى بالقوة وحينما انتهيت الى هذا القرار ، كان القطار متجها الى الأقصر تاركا أسيوط خلفه ، وعدنا الى المقصورة نجلس فى هدوء وانسجـــام نواصل من الحديث ما انقطع ، وسألتنى بخبث ودلال :

ـ أنا كنت فاهمة انك نازل أسيوط ..

ـ صحيح .

ـ وبعدين ؟

ـ لا شىء .. سأقضى معك يوما فى الأقصر . فلم أشاهدهم وهم يصورون الأفلام .. الا اذا كان عندك مانع ؟

ـ أبدا .. بدا ..

وران عليها الصمت ، وخيل الى أنها لم تكن تتوقع منى هذا الاندفاع ، أو لعلها تتظاهر بالمباغتة ، أو انها تفكر فى التخلص منى وآثرت السكوت وأنا ألوم نفسى واندفاعها ، وأعنفها على الدخول فى مغامرة عاطفية مع فتاة لاشــك أنها تكذب على وتكتم عنى حقيقة أمرها ..

وطال صمتها وكثرت التساؤلات فى عقلى وكثرت الافتراحات وحاولت أن أنطق بشىء ولكن فمى ظل مقفلا ثم اضطررت الى الحديث حينما أتى محصـــل القطار ولم يعفنى من بعض الكلمات المناسبة فى مثل هذه الحـــالات ، وعندما غادر المحصل المقصـــورة ، راحت زيزت تنعته بصفات غير مهذبة لتطاوله على أناس مهذبين مثلنا ، وحينئذ ضحكت وطيبت خاطرها ، وكان هذا ايذانا بعودة الحديث الى عنفوانه ، وارتفعت الكلفة بيننا ، واختفى التوتر الذى كنت أعانيه . ولم أشعر الا والحمالون يسألوننا فى محطة الأقصر الى أى فندق نقصد . وهتفت أنا مرحا وكأننى أملك كل شىء :

ـ أحسن لوكاندة هنا ..

وسرت السعادة والبشر على وجوه الحمالين وانتشوا جميعا، وبسرعة كنا ننطلق فى احدى عربات الحنطــور .

السجاد الأحمر ، القاعد المريحة .. وضحكات نساء جميلات ناعمة وهواء مكيف ورجال يدخنون ، وجو من الخيال .. ثم قفز من السقف عملاق أسود عارى الصدر وهز رأسه وضحك ضحكة خشنة واقترب منى ، حاولت أن أغوص فى المقعد .. ولكن المقعد هرب وتركنى أسقط على الأرض على السجــاد ، السجــاد ناعم ويشعرك بالأمن . ولكن العملاق جذبنى من شعر رأسى ثم رفعنى الى أعلى وقذف بى ، طرت فى الهواء وارتفعت حتى خرجت من سقف الحجرة .. واندفعت نحو النيل .. وسقطت فجأة فى المـــاء وصرخت من برودته .

تأخرت عودتى الى اسيوط اسبوعا قضيته بصحبة (زيزت)
ولولا نفاد النقود لمكثت أكثر من أسبوع مع هذه الفتاة المرحة الجميلة
التى لم أحادث ولم أختلط بأجمل منها ، ولكن كان على ان اعود الى
اسيوط لأنهى حياتى فيها واسلم القلم لرئيسى المباشر معلنا اياه
بصوت معتدل ليس بالخفيض ولا بالصراخ ، وفى ثقة أقول :

— يا سيادة الرئيس المبجل ، مع احترامى لشخصكم المحبوب ،
ومع حبى لظرف سعادتكم ومع شغفى بحديثكم العذب ، اعلنكم
بكل أسف أننى من اليوم أعتبر نفسى شخصيا حرا طليقا من قيود
دفتركم الملعون الذى تسجلون فيه حضورى وانصرافى كل يوم
بالدقة المعهودة فيكم ، ورغم حزنى لاختفاء اسمى من هذا الدفتر
فاننى سعيد ، وساحقق لكم رجاء طالما تمنيتموه وهو اختفائى من
امام سعادتكم ، واراحة المكتب من وجودى المنفر ، والذى كان
يسبب لسيادتكم بعض الضيق .

ثم انحنى احتراما واجلالا ، وانا أمسح دمعتين كادتا تسقطان
على خدى وسوف يتأثر موريس أفندى ، وربما احتضننى فى قوة
وهو يؤكد لى أننى مثل ابنه وأنه يحبنى كل الحب وأنه كان يعاملنى
هذه المعاملة ليجعل منى رجلا فى المستقبل .. وسيجتمع الزملاء
ورؤساء الزملاء ومدير القسم ومدير الأقسام الأخرى ، وربما المدير
العام ليروا هذا المنظر الفريد من الحب الخالص والوداع الرقيق ،

سوف يبكون ويخرجون مناديلهم البيضاء المخططة يمسحون بها دموعهم ويلوحون لى بها مودعين ، وحينئذ اخرج بين عاصفة من الانفعالات الرقيقة ، وبالطبع سيظل العمل فى هذا اليوم معطلا بسبب انشغالهم فى الحديث عنى .. سلوكى الحميد ، أخلاقى المثالية .. وعن الشخص الذى لا يعوض .

وحينما ذهبت الى المنزل وجدت زوجتى فى منزل أمها غاضبة لا تنوى التحرك الى منزلنا مهما كانت الأسباب ، صامته وكأنها أبو الهول تحمل سر غضبها فى غيظ ، وضاعت محاولاتى فى اسعادها أو مصالحتها أو حتى فى معرفة سر حزنها الشديد ، وذهبت أدراج الرياح كل الكلمات الطيبة التى حاولت أن أكسب بها رضاء زوجتى . وأخيرا عدت وحدى ربما تأتى هى بمفردها دون توسل أو استعطاف أو استجداء ، وما كان يدفعنى الى كل هذا ، اضطرارى لاقناعها بالسفر معى الى القرية لتنفيذ مشروعى الجديد .. ولكنى فشلت فى الخطوة الأولى .

فى الصباح ذهبت الى العمل حيث وجدت الأمور فى غير موضعها ، ولم تكن بالسهولة التى تخيلتها فهناك قرار بنقلى الى منطقة الجيزة وهذا القرار لو أنه صدر من أسبوعين فقط لجعلنى أطير من الفرح وأرقص من السعادة فالنقل الى الشمال كفيل باسعاد موظف مغترب مثلى فهو يعنى الشىء الكثير ، ويحمل لى أمل الاقتراب من بلدتى فى شمال الوادى . ولكن القرار لم يسعدنى ولم يجعلنى اقفز فى الهواء فرحا .. رغم أن الجيزة لا تبعد عن بلدتى أكثر من ساعتين فى السيارة ولكن القرار وضعنى موضع تردد من مشروعى الأول . فهو يعنى الدخول فى تجربة جديدة وربما أحصل على عمل أنسب هناك بالاضافة الى لذة الجديد فى التجربة ، فهل معنى هذا أننى أترك مشروع الجرار وانصرف عنه طالما أننى سأكون قريبا من بلدتى ومن القاهرة حيث كل ما يمتع أحاسيس الانسان .



٠٠ أم أن مشروعي يجب تنفيذه سواء نقلت أو لم أنقل ، واستقالتي يجب أن أقدمها سواء تم النقل أو لم يتم ، ولا يهمني القرار .

ووجدت رئيس القسم يحسدني على قرار النقل ويحاول ان يوضح لي أنه السبب . وتحدث عن مركزي الجديد الذي ساحتله في فرع الجيزة أكثر من ساعة ، ولكنه طلب مني في آخر حديثه توضيح سبب تأخري وعدم عودتي في الموعد المقرر لانتهاء الاجازة ، وأنه سيطلب تحويلي الى التحقيق ، وحرت فيما أقوله له ٠ كيف أفسر له هذا التأخر ، ثم ان صورة ذهابي الى هذا المحقق النحيف ذي الشارب المربع رفعت المرارة الى فمي ــ فقلت وانا أتظاهر بالحزن :

ــ أمي كانت مريضة ٠

ــ شفاها الله ٠٠ شفاها الله ٠

وأخرج ورقة وكتب عليها بعض الكلمات وأعطاني القلم لأوقع بالعلم ، وما ان قرأت ما كتبه حتى وضعت القلم جانبا بهدوء وقلت :

ــ قدمت استقالتي ٠

ــ استقالة !!

وكأنه أصيب بلدغة ثعبان ٠ فوقف مشدوها وهو يردد :

ــ لا ٠٠ لا ٠٠ استقالة ٠٠ غير معقول ٠٠

تركته وانصرفت ، فمثل موريس أفندي لا يؤمن بالاستقالات ، ولا يتصور أن موظفا في عمل يستقيل ويترك عمله الا بأحد الحدثين الموت أو الرفت ٠٠ اما أن يستقيل بنفسه فليس هذا معقولا ٠٠ من الممكن أن ينقل أو يرقى أو يفصل أو يحال على المعاش أو يوقف عن العمل بعض الوقت ٠ ولكن بكل حريته يستقيل ؟ ، حتى لو كان السبب غيابا بدون اذن لمدة اسبوع فهذا أيضا من الممكن تلافيه

بخطاب من طبيب بشهادة وفاة أحد الأقارب أو بمذكرة تكتب بشيء من الذكاء . وقد كان موريس أفندى دائما يذكرنا بأنه موظف مثالى خدم فى الحكومة والهيئات أكثر من سبعة وعشرين عاما دون عقاب أو حتى دون لفت نظر واحد .

لم يودعنى موريس أفندى ولا الزملاء فى القسم ولا زملاء الأقسام الأخرى ، فقط .. أبلغنى مدير مكتب المدير بأنه يجب الانتهاء من بعض الاجراءات المتبعة فى مثل هذه الحالات والتى لن تستغرق أكثر من أسبوع وبعدها أصبح حرا .

وخرجت من باب المؤسسة لا دموع ولا مناديل بيضاء . ولا حمراء ولا أحد اهتم بمثل هذا الأمر .. الناس يدخلون من الباب الكبير ، يصعدون السلالم ويتفرقون بين الحجرات والممرات وغيرهم يخرجون ، ماسحو الأحذية وبائعو المأكولات والملابس . أصحاب الحاجات وموظفو المؤسسة يدخلون ويخرجون ، أضواء ودقات الأجراس ، ونداء أم على ابنها ولعنة رجل على ظلم آخر ، ولعنة من ولد لآخر قذفه بحجر ، وفتح الشارع الكبير ذراعيه والتهمنى بين أشباحه وأصواته الهادرة بأنين الحياة وبجنونها . وسرت فى أحشائه متطلعا الى وجوه القوم فى محاولة لفهم ما يخفونه عن الآخرين . فالانسان حيوان منافق بطبعه ، زيزت اسمها الحقيقى زينب، كانت تغطى ضعفها ووحدتها وفقرها بغطاء من الكبرياء وبعض الأصباغ . وسيجارة مشتعلة .. ولكن الانسان لا يستطيع أن يحمل أغطيته دائما ، فانه أحيانا يشعر بالتعب فيلقى بها ويجلس فى استرخاء بدون أغطية . فيظهر على حقيقة ، ضعفه وفقره ، نفسيته المحطمة وآماله الخائبة ، آلامه المبرحة ، يمده يده سائلا المعونة .

زينب ، فتاة يتيمة لا أحد لها فى هذه الدنيا الا كبرياء جوفاء وبعض الأمانى والاحلام وكلمات معسولة يقولها أناس يملكون المال أو المنصب جاءت الى الأقصر .. ترتدى ثوب نجمة المسرح والسينما

لتجد انهم عثروا على اخرى اقل اجرا واكثر شبابا ، بكت أمامهم ولكنهم طردوها بجفاء ، شكت لهم انها جاءت من القاهرة بالدرجة الثانية وانفقت كل مالها لتحضر الى الأقصر كما اتفقوا معها — واظهرت خطاب الشركة ولكنهم ضحكوا من سذاجتها وطردوها .

مسكينة زينب ، رأيت الخطاب وسألت من يعملون فى الفيلم فعلمت منهم بأن كل هذا جائز ويحدث دائما .. طالما أن الأمر متعلق بأحد أفراد الكورس فلا خطابات معتمدة .. ولا اتفاقيات .

وأحست زنيب بالمهانة ، صرخت . بكت . تعرت من الأغطية . رأيتها على حقيقتها . فشعرت بشىء ما نحوها ، ليس الحب ولا العطف ولا الشفقة ، شىء ماغير هذا كله ، جعلنى اقضى معها أسبوعا نمرح ونقضى أياما جميلة فى الأقصر .

وحدثتنى زنيب عن حياتها كثيرا ، قصص وحكايات ، بعضها حقيقى وبعضها مغطى بطبقة من الخيال أو التهويل لتخفى شيئا لا تحب أن يعرفه غيرها . أو شيئا تود أن تنساه ولم أحاول أن أسد عليها المنافذ وأحقق فى حكاياتها الصغيرة ، تركت لها الأمر تغطى ما تشاء وتصارح بما تريده ، أستمع اليها وأتبين بنفسى ما يمكن أن يكون حقيقى وما هو براق . ولكنى لاحظت من خلال حديثها أن هناك أملا لم يخب ولم يتحقق بعد .. ربما فارس شجاع يخطفها ويطير بها الى أرض خضراء حديثة الولادة حيث الأمن والحب والسلام ، وربما يكون هذا الفارس مخرجا كبيرا يكتشف فيها الموهبة النادرة ، وربما يكون ثريا متخما بالمال يهواها ويبنى لها قصرا على الخليج ، أو على الأقل شابا يساندها فى الحياة ، وتعيش فى ظله ، ومن الجائز أن الأمل ليس فارسا ، بل مجرد حلم تصنع حياتها بنفسها تجمع كل الروث الذى عاشت فيه حتى الآن وتصنع منه هرما تقف فوقه لتبلغ قمة وجودها الانسانى ، وسواء كان الأمر هكذا أو لم يكن فان شبح الأمل ، الذى لم يتحقق

بعد ، لم يخب فيه الرجاء ، ويلمع بين كلماتها ويجعل عيونها تبرق بالسعادة .

ولم أقل شيئا وانا أودعها في نهاية اللعبة ، لم نتفق على اللقاء ولم تسألني عن شيء تستدل به على مكاني . وكأن . حياتنا معا وقفت عند هذه اللحظة . كل منا قام بدوره ، قمت انا بدور الفارس الذي افتحم حياتها وحملها فوق فرسه ليشاهدا معا معابد الفراعنة ، ويعبران النهر ليجلسا فوق الكهوف ، وقامت هي بدور الحورية الجميلة التي مسحت عن فتاها قطرات الألم وهي تغني أغنيات الحب .

حدثتها عن مشروعي .. ولم أكن أقصد استشارتها أو طلب النصح ، بل كنت أطرحه خارجا لأراه بعيني وبعقلي لأدرسه وانا أقصه . لوحت لها بمنديل أبيض وابتسمت واختفت مع القطار لتعود الى حياتها بين الأضواء لعلها تجد وجودها الحقيقي .

زيزيت .. أين أنت ؟ ربما أجدها هنا بين هؤلاء ، وألمح طيفها يبرق من السماء ملاك حزين في يده تذكرة دعوة لايجد من يأخذها، فجلس على سور الجنة وغلبه النوم فسقطت التذكرة .

ظللت أبحث عن دسوقي طيلة اليوم حتى وجدته يجرب الجرار الجديد ، وما ان رآني حتى أسرع الي واخبرني في ثورة استقباله العارم .. انني غبت عنه طويلا ، واحسست بصدق كلامه . وجلسنا لنشرب الشاي أكثر من مرة والكلمات لاتفي بالغرض ، كان كل منا يود أن يحدث الآخر بما فعله أو حدث له أثناء مدة الغياب ، كنت أود أن أخبره عن الاستقالة وزيزيت وغضب زوجتي وما رأيته في القاهرة والمعلم جابر وحارة الورشة ومصطفى ، وخبر نقلي الى الجيزة ولكن الوقت يمر ولديه هو الآخر شريطا طويلا من

الحديث عن حوادث مرت به . ولكنى قصصت عليه بسرعة مشروعى الجديد ورغبتى فى شراء الجرار .

وسكت دسوقى طويلا حتى خفت وفكرت أنه ممانع فى الأمر وشعرت بالندم لأننى أقمت مشروعى على أســـاس موافقتـه ولم أناقش مع نفسى مبدأ رفضـه . وداريت تلهفى لسمـاع رده ، فى قراءة ما كتب على الجرار الجديد بصوت مرتفع ولكنه قال مقاطعا :

ـ الموضوع صعب ، خسارة تترك عملك .

ـ دسوقى أنت خائف على ثمن الجرار ؟

فانتفض غاضبا وهو يصيح :

ـ جرار ، فى ستين داهيه الجرار ، كلمتك تســاوى، عندى عشرين جرار .

واردت ان اخفف عنه غضبه أو أوضح كلامى ولكنه لم يدعنى أكمل الحديث واقسم أن الجرار ملكى من الآن ولا يقبل من مناقشة فى هذا الأمر بعد الآن .

وآثرت أن أسكت قليلا حتى يهدأ ثم أعاود الحديث معـه مرة أخرى فأنا أحتاج الى نصائحه فى عملى الجديد ، وسوف أرحل بعد أسبوع فلا داعى لاغضابه وأحس هو أنه اندفع فى غضبه دون مبرر واستأذن مدة قصيرة حتى يضع الجرار فى مكانـه ثم يأتى لنعود سويا .

جلست فى خلال هذه المدة أفكر فيما أفعله كيف ارتب أمورى واسوى أمر زوجتى ، وواجهت سؤالا شغلنى التفكير فيه عن بقية الأمور :

ـ هل أنا مقتنع تمـاما بما أنا مقدم عليـه ؟ أم أنـه نوع من الاندفـــاع أو اللهو الأخرق سرعان مايتلاشى ولا يبقى الا النـدم والضياع ؟

وصرفني التفكير في الاجابة على هذا السؤال ، عن النظر الى ما يفعله دسوقى حتى جاء وصحبنى الى منزله ٠

شعرت بالهدوء والراحة في منزل دسوقى ، الحيـاة البسيطة الخاليـة من التعقيدات ، حيث الزوجة الحنون التى حولت المنزل الى جنة حقيقية ، والأطفال يلعبون فى سعـادة حولنا يداعبهم فى حنان وحب ، الأثاث بسيط ومريح ٠ كل شيء يحمل اليك رائحـة السعادة ، مفارش بيضـاء منقوشة باليد ، رسوم بسيطة سـاذجة تعبر عن الايمان بالله ، وقدمت لنا زوجة دسوقى طعاما لم أكن ذقته من قبل ، وهو خليط من اللبن والعسل والفطائر والسمن وأشياء أخرى لا أذكرها ٠٠ رغم أن دسوقى شرح لى كيف يعدونها ٠

وبعد أكواب الشاى التى شربناها ، كنت فى حالة تسمح لى بالتحدث فى هدوء الى دسوقى واخذت أشرح له ما انتويت الاقدام عليه ٠ وحاولت أن أبين له سبب كل هذا ٠ وأنا فى الحقيقة كنت أجيب على السؤال الذى كان يشغل تفكيرى ، وكلما أقتنع دسوقى بما أقوله زاد اقتنـاعى أنا الآخر ، وانتهت الى حقيقـة هامة اما أن أكون الأول فى عملى أولا أكون ، ولن أنجح فى العمل وأتقدم فيه الا اذا أحببته ، لا يهم نوع العمل ٠٠ ولكن المهم أن تحبه أن تتقنه ، ورد دسوقى :

ــ فعلا ، ليست الحياة مجرد شهادة من المدرسة أو الجامعة ٠

صدقت يا دسوقى ٠٠ يحب أن يفهم الانسان دوره فى الحياة ٠ وليست الشهادة الجامعية تذكرة دخول الى المكاتب ولكنها قبل كل شيء علم أولا ثم عمل ٠

واخذت نفسا عميقا ، وانتشيت بحديثى مع دسوقى ، وشعرت أن عقلى أصبح صافيا مرتفعا عن خيوط العنكبوت التى نسجتهـا طوال حياتى ٠

– زيزت هل تودين معرفة عنوانى الجديد ٠٠ ربما أرسلت لى تذكرة دعوة لدخولى أحد أفلامك ٠

– اكتبى اذن الى قرية الكادحين ، بجوار ترعة الساحل ، عند الساقية يصل ويسلم ليد الأسطى صاحب الجرار ٠

– ولكن لا ٠٠ لا ٠٠ لا أحلام بعد اليوم ٠

– آسف يا صديقى ، أن لك الحق كل الحق فى أن تحلم ٠٠ ولكن يجب عليك أولا أن تتعلم كيف تحلم ٠

خرجت من منزل دسوقى وأنا أضحك ٠

كانت مشكلتي التالية ، كيف اقنع زوجتي بالرحيل معي الى القرية لتصبح زوجة سائق جرار ؟ هي متحصنة في منزل امها لا تريد مبارحته ، ولا تعطيني فرصة الانفراد بها حتى احاول التحدث معها واقناعها بفكرتي .. وكلما ذهبت اليها وجدتها مع امها وكلما حاولت جذبها بعيدا عن امها التصقت اكثر .

ماذا فعل ولم يبق سوى ثلاث ايام على الموعد الذى حددته لرحيلي .. واخيرا اهتديت الى فكرة نمت في فراشي متظاهرا بالمرض وارسلت احدى فتيات جارتنا الى زوجتي لتخبرها بالأمر ولكن طال انتظارى لها وساورتني الشكوك هل الفتاة حملت النبأ لزوجتي واخبرتها به ، أم انها لم تفعل واكتفت بأخذ قطعة النقود ام انها اخبرتها وهي لا تود الحضور ومعنى هذا انه لا يهمها أمرى .

الأمور تتشابك وتوحي بكارثة . حينما تزوجت تم هذا بسلبية مني ، وحتى الآن لا اعرف هل احب زوجتي ام لا احبها ... هل لو ادى الأمر الى الانفصال عنها افعل ام انني أجبن عنه ؟ وهل هذا الجبن نتيجة حبي لها ام لسبب آخر اقرب الى الأسباب التي من اجلها تزوجت فاطمة ؟

لقد فكرت كثيرا في عملي . وحينما اهتديت الى وجوب تغييره ، غيرته ولم يبق سوى ثلاثة أيام وبعدها ابدا في أولى مراحل العمل الجديد . والحياة تأتي للانسان مرة واحدة ، ودفعة واحدة



أن امتلكها وعاشها .. فهي له وان ضيعها فهي عليه ، والاحلام تاكل الصدور والعقول ولا تترك الا رمادا تذروه الرياح ، ولا يبقى في اليد الا اتساخها من الرماد المحروق فان كنت احب زوجتي عشت معها وانا سعيد .. وان كان ما بيني وبينها ليس حبا فلاسرحها بالمعروف . واحمل عصاى وارحل وليكن في قريتي حياة جديدة في بيت جديد .

ذهبت حتى شاطىء النهر ، الجو ساكن والرياح هادئة ، وامواج النهر نائمة بجوار الشاطىء ، والشمس ترقد على الشاطىء الآخر ، ورجل في ملابس سوداء يجلس القرفصاء . ترددت في ان اقترب منه ولكنه اشاح بعضا من الرداء حول راسه وابتسم وهو يقول :

ـ اقترب يا ولدى .. لاتخف .

واقتربت قليلا بحذر ، وإنا في حيرة من أمر هذا الرجل ،وقلت في صوت مخنوق :

ـ السلام عليكم يا عم الشيخ .

وضحك الشيخ بصوت واضح ، وقال :

ـ الا تذكرني يابني ؟

فحاولت ان اتذكر ملامح وجهه ولكني لم أهتد الى شيء فهززت راسي وانا اقول :

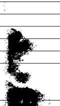
ـ لا اذكر ..

ووقف بهدوء وازاح الرداء كله عن جسمه ، فبدا كأنه عملاق اسمر يرتدى زى اهل قريتنا وعلى ذراعه وشم امراة نصفها الأعلى بشري والنصف الأسفل ذيل سمكة كبيرة ، وعلى ذراعه الأخرى وشم أسد بيمينه سيف . وحاولت أن اتخيل من يكون هذا الرجل

فهو ولاشك من قريتى ويعرفنى من يكون ومن أين جاء والى أين هو ذاهب .

ونظر الى ثم ابتسم فى حنان وقال :

ـ انت تعرفنى تماما . لقد عشت معك سنوات طويلة منذ ان كنت طفلا تلعب فى .. الحوارى وحينما كنت شابا تجوب الطرق ايضا حينما اصبحت رجلا فكيف لا تذكرنى بعد كل هذا ؟ !!



واضطربت فلم يكن لى صداقة بأحد معين من اهل القرية .. كانوا يجلسون معنا فى الاجازات لمجرد الجلوس والحديث فى امور عامة . فنحن رغم وجودنا فى القرية ونشأتنا بها الا أننا (افندية) رغم هذا كله ، الملابس مميزة .. جلباب افرنجى يتميز عن الجلباب البلدى الذى يرتديه اهل القرية ، رؤوسنا عارية ، فى اقدامنا نعل خفيف .. نعم ، نبدو نحن تلاميذ المدارس فى القرية . مثل طبقة خاصة .. طبقة الأفندية ، وليس لنا أصدقاء الى هذه الدرجة التى يقول عنها هذا الرجل .

ولا حظ الرجل طول تأملى .. فقال :

ـ لا فائدة من التذكر ، أنا معاورى .

ـ عم مغاورى !!

ـ نعم .. هل هذا عجيب .. اننى مت منذ وقت طويل ، ولكن رغم موتى فاننى اعيش معك فى احلامك ، فى يقظتك ، وما اكثر ما تحادثنا سويا وكم ارهقتنى بسؤالك .. وكم اتعبتك بقصتى ..

واحسست بنشوة ، ونسيت خوفى .. فاقتربت منه وقلت:

ـ ولكن هل انت حقيقه ..

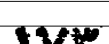
ـ نعم ياولدى .. ولماذا اكذب عليك .. وانت ذاهب الى قريتنا ، وربما زرت ابنائى وبيتى وحقلى .. كيف حالهم الآن ؟

ـ في يسر بفضلك يا عم مغاورى وبفضل ..

ـ لا تكمل يا بني فهذا كذب ، محض خيال ، ولهذا اتيت اليك الآن ، لأزيل عن عقلك تلك الغشاوة التى تركتها حواديت الصبية واحاديث السمر .

ـ ولكن الم يكن الأمر حقيقيا .. أقصد علاقتك بالجنية ؟

ـ لا يا ولدى .. لقد عشت في وهم كما عاش آخرون مثلك سمعوا القصة وتناولوها بالتحـــريف والتخويف حتى أصـبحت أسطورة لا أساس لها من الحقيقة .



ـ لم يكن هناك جنية ؟

وضحك عم مغاورى . وشعرت بالخجل من السؤال ، وتلعثمت قليلا وانا اقول :

ـ انهم يقولون ذلك في (الحدوته) .

ـ وهل كل حواديت القرية صادقة ؟ لقد اخترعها الشيوخ لأن القرية تنام فى الظلام بعد الغروب ، والشيوخ يزهدون النوم ، وليس امامهم الا موقد يشتعل فيه بعض الحطب ، وفى نفوسهم تشتعل الأماني المخنوقة ، فلا يطيق العقل فكاكا من النارين الا باختراع امثال هذه الحواديت .

ـ ولكن لماذا معك انت بالذات ؟

ـ (الحدوته) لها بعض الصلة بالواقع . فقد كنت شغوفا بعملى لدرجة العبادة ، وكنت أرى الله من خلال عملى ، فلم أترك الحقل ابدا ، وكان ما يحزننى هـو فيضان النهر كل عام فيغرق المحصول ويذهب مجهود العام كله . فوضعت كل اهتمامى فى تقوية الجسر ، حتى أننى كنت كثيرا ما اجلس آحرسه بالليل واحيانا كنت اغفو فلا اشعر بنفسى الا قبل الفجر . وعرف الناس عنى هذه

العادة ، فكيف يفسرونها ؟ ، والبحر فى عقولهم ملىء بالجنيــات، ومن يجرؤ على الاقتراب من النهر فى الليل الدامس الا صديق جنية منهن ، وهكذا اطلقوا على صديق الجنية .

— ولم تأت الجنية وكأنها حمار ؟

— ولا حتى كلب .



— وكيف اقمت الجسر الذى منع الفيضان عن ارضك ؟

— ...

وضحك عم مغاورى ضحكة طويلة والتقط الرداء وتلفع به وانا انتظر اجابته ولكنه سار الى الامام مباشرة ولم يتلفت نحوى ولم اجرؤ على الاقتراب منه حتى اختفى .. ولكنى صحت باعلى صوتى حينما رأيته يغرق فى ماء النهر وظللت اصيح حتى احسست بشىء بارد حول جبهتى وفتحت عينى فرأيت فاطمه تبتسم وهى تقــول :

— لقد كنت مريضا حقا ..

— غيابك عنى يميت نفسى حزنا فامرض .

ولم ترد لانها لا تجيد صنعة الكلام ، فآثرت ان اتفرغ لما هو أهم .

الجو بالخارج يميل الى الانتعاش قليلا ومعظم أيام أسيوط لهيب يشوى الاجساد ، وليل اسيوط بارد يميت القلب ويحطم الضلوع ، ومن النادر ان يعتدل الجو ولا ادرى هل اعتدل لاننى مغادر أسيوط دون عودة ام انه اعتدل داخل نفسى فقط ؟..وربما انعكست حالتى النفسية على احساسى بالجو .. وعلى كل فقــد قررت أ ن اخرج الى النيل واصطحب زوجتى فى جولة تشبه تلك

الجولات التي كنت أقوم بها أيام كنت ألعب معها لعبة الحب .
ولم توافق كما أنها لم تعارض أيضا ولكنها ابتسمت فقط .

سرنا صوب أسيوط الجديدة ، عبر النفق الذي يقسمها قسمين حينما دخلت الجامعة الى أسيوط ، انشأت أسيوط جديدة ، أو بمعنى آخر ولدت أسيوط جديدة . المباني المرتفعة والشوارع المرصوفة وحدائق الجامعة ومبانيها ومعاملها والأضواء التي ترسلها وجماهير الطلاب تغدو وتروح وتبعث في شرايين أسيوط دماء جديدة .. هذا كله غير من وجه المدينة امتزجت فيه روح التقاليد القديمة للمدينة وروح الثورة التي جاءت مع الجامعة امتزاجا أدى الى خلق عالم جديد ، وزوجتي تسير بجواري .. وأنا أتحدث اليها بكل ما في نفسي .. هذا الهدوء يعجبني وهذه المباني بهندستها وألوانها الجميلة تثير اهتمامي أتمنى أن يعاد بناء كل أسيوط من جديد .. الشوارع ضيقة ، المباني قديمة متهالكة وأزقة وحواري ورائحة فقر ومنازعات في كل أنحاء الحي القديم بينما جامعة مضيئة وعمائر وشوارع نظيفة واسعة ورائحة العلم والثورة في كل أنحاء الحي الجديد ..



ونظرت الى زوجتي ، انها من أسيوط ، وأنا الغريب عنها .. ولكنني تناسيت هذا وأخذت أشرح لها كل ما نراه بحماس وكأنها هي الغريبة وأنا ابن البلد ، ودار بنا الوقت ، واقطعنا طرقا طويلة حتى وصلنا الى حافة الخزان فأخذنا مجلسنا نتطلع الى تدفق المياه ..

كم أنا غبي لأنني لم أحب هذه الفتاة حبا خالصا دون أحلام أو أمنيات ، ما عيبها ؟ لا شيء ، لقد كان العيب في رأسي وفي مايدور في هذا الرأس البليد الغبي ، ها هي زوجة لاعيب فيها ، وبدلا من أن أنظر اليها كما هي رحت أنظر الى ماينبغي أن تكون اذا وجدت أخرى لها عيون خضراء . لعنت حظي لأن زوجتي عيونها

سوداء ، واذا رايت سيدة بيضاء لعنت سمرة زوجتى ، وان كانت السيدة تميل الى السمنة ، فزوجتى نحيفة وكأنها قفص من الجريد الأسيوطى ونحافة زوجتى ايضا لا تعجب فهناك اخريات رشيقات يسرن فى الشارع بملابسهن الضيقة ولا يمكن قياس بدانة زوجتى برشاقتهن ، واذا قابلت جامعية تضع النظارات حول عينيها وتنوء بما تحمله من مراجع وكتب ، فيالقبح الجهل فى زوجتى ، واللعنة عليها لأنها اكتفت بشهادتها المتوسطة وهكذا لاينتهى بى الحال الا على ان حظى سيىء وزواجى كان فاشلا ، وانه كان ينبغى البحث عن زوجة اكثر رقة وجمالا وتعليما .



ونظرت الى زوجتى مرة اخرى ، استعيد افكارى عنها ، كم من الليالى نمت مقهورا مغلوبا على أمرى ، حزينا الى حظى فى الدنيا لأن زوجتى لا تجيد الحديث ، كم من الساعات قضيتها فى كآبة لأن زوجتى تجلس صامتة منهمكة فى أعمال الابرة اوالخياطة او شيء مثل هذا ..

وصحوت على صوت زوجتى وهى تقول :

ـ انت نايم ؟..

ـ افكار ..

ـ خير انشاء الله ..

وواجهت عينى زوجتى السمراء وقلت :

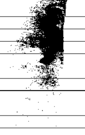
ـ بتحبينى ..؟

واجفلت ثم اطرقت فى خجل وكأنها مازالت فتاة صغيرة .. وانكرت عليها هذا الصمت ، وصحت فيها :

ـ تحبينى ..؟

ـ طبعا ..

ـ طبعا .. من غير طبعا ، اريد اجابة محددة فى كلمة واحدة.
اهتزت وهى تبتسم فى ارتباك ..
ـ احبـــك ..
ثم نظرت الى فى ابتسامة حنون وكأننى مريض ، فارتبكت قليلا ، وشعرت بسخافة السؤال وبسخافة التفكير فيه ، ولـكن برق فى عقلى خاطر ، ووجدت الفرصة مناسبة .. لأشرح لهـــا ما اعتزمت عليه :
ـ انا مسافر البلد يوم الخميس .
ـ ومتى تعود ؟
ـ انت أيضا مسافرة معى .
ـ انشاء الله .
ـ انا وانت سنسافر الى البلد نهائيا .
ولم ترد بكلمة واحدة ، فأكملت حديثى بسرعة :
ـ استقلت .. وقبلوا الاستقالة .. واشتريت جرارا .
وكأننى انتهزت فرصة سكوتها ، ورحت فى كلمات سريعـة متلاحقة حتى لا أعطيها فرصة الرد او التفكير فى الاعتراض ، اسرد عليها مشروعى الجديد ودورها فى هذا المشروع.. وبحماسى اخذت اشرح لها الأمور . أليست زوجتى ومن الواجب على أن أفاتحها بما يدور فى عقلى ربما اكون على خطأ وهى اقرب الناس الى واقلهم حسدا وطمعا فيما بين يدى واكثرهم تعلقا بى وبمستقبلى ، فلم لا اقول كل ما اختزنه فى عقلى .



وعندما تذكرت اننى قلت كل شىء سكت وانا انتظر ردها ..
ولـكنها قامت وهى تقول :
ـ الوقت سرقنا ..

— فصـــلا ..

وسرنا نحو المنزل ، انا غارق فى افكارى وتوقعات ردهـــا ، وهى صامتة ويبدو عليها شيء من القلق وعندما احسست انهـا لا تود ان تعلق على الأمر ، آثرت انا الآخر الصمت حتى وصلنـا الى المنزل ، وخلعت ملابسى وبدات استعد للاسترخاء على احد المقاعد ، ولـكنها قالت لى قبل ان أقترب من المقعد :

— والشنط ؟..

وضحكت .. ضحكت بكل قواى حتى شعرت بالراحـــة ، واخذتها بين احضانى فرحا بها .. سعيدا بقرارهـــا ، ولـكنها تملصت منى وهى تقول :

— كان لازم تخبرنى عما يدور فى فـكرك .

وحاولت ان الحق بها وافسر لها موقفى او استرضيها ولكنها كانت تفلت منى وهى تقول :

— ليس الآن ، الوقت ضيق وامامنا اشياء كثيرة ، تصور كل ما فى المنزل يجب حزمه وشحنه وكذلك الملابس واشياء اخرى كثيرة ولم يعد هناك وقت كاف .

—ولـكنى احبك .. واريدك ان تعلمى بذلك .

— سيكون لدينا وقت بعد الرحيل لهذا الامر .

واضطررت للـكف عن الـكلام ، وانهمكت معهـــا فى ترتيب الأشياء وتصنيفها وحزمها ، ورحنا فى هـذه الدوامة حتى يوم السفـــر .

- ٢٤ -

كانت المحطة مزدحمة على غير العادة ، فرق كشافة ، جماعات من الطلبة فى رحلة ، مسافرون ، ومودعوهم ، حقائب كثيرة .. اربطة ملابس .. صناديق الكتب .. حقائب ملابس زوجتى ، اربطة الأدوات المنزلية ، أجولة بها عدس وفول هدايا لأمى .. وانا وزوجتى غارقان فى بحر من الارتباك ، وامها تصرخ :

ــ خد بالك من العفش .

ثم تبكى ولا تكف أبدا .. اخوات زوجتى واقاربها يحيطون بنا ..

ــ الاشارة لقطار القاهرة .

ــ أبدا .. الاشارة لفوق .

بعضهم يرسم خطة القفز السريع الى القطار وآخر يقترح قذف الحاجيات أولا ثم القفز .. بعدها اضمن حتى لا نترك شيئا ..

ــ أرسلى الخطاب فور وصولك ..

ــ حاضر ..

ويضحك أحدهم ، ويتحدثون فى موضوع مختلف ، تؤكد لى أم زوجتى وهى ما زالت تبكى :

ــ حافظ عليها يا ولدى .

ـ حاضر ..

زوجتى تدور وتتحسس الحقائب والأربطة فى ارتباك واضح ثم تذهب الى امها وتلومها بشدة لأنها تبكى ، وتنهر طفلا يعبث برباط احدى الحقائب وبعد ذلك تأتى لتقف بجوارى وتسألنى :

ـ التذاكر ؟

ـ فى جيبى .

ـ تأكد منها حتى لا تضيع .

ـ حاضر ..

واقف ساكنا ، ولكن خوف زوجتى على تذاكر السفر يدفعنى الى البحث عنها فلا أجدها لأول مرة ، واعيد البحث فى كل جيوبى ويلاحظ الواقفون ارتباكى احدهم ويسأل :

ـ ما الذى تبحث عنه ؟

ويجيب آخر :

ـ النقود ؟ هذه المحطة ملعونة بالسرقة .

ـ يجب أن تكون حريصا فالدنيا لم يعد لها أمان هذه الأيام .

ـ خير الحمد لله لاشىء ضاع .

ـ ابحث جيدا .

ـ دعنى ابحث معك .

ـ اعطنى هذه اللفافة .. وابحث مرة أخرى .

والكل يتحرك حولى فى لهفة فزاد ارتباكى ، ينصحوننى بما يجب عمله . وانظر الى زوجتى واشعر انها سوف تلومنى لأنى لم أسمع كلامها ، والتذاكر فى يدى ، اضعهـا فى جيبى الأيمن ثم انقلها الى الأيسر ثم فى جيب البنطلون ثم فى الجيب الداخلى ، واحتار اى جيب أضمن واحسن وسأتذكره بسرعة .

والقطارات تاتي وتذهب وقطار بضائع يقف ويصرخ ، يجرى الحمالون ويسير القطار بضع خطوات ليقف مرة أخرى ، واحدهم يقدم لى سيجارة ويقترح الآخر ان نذهب الى بوفيه المحطة وثالث يقاطعه لا داع فيجب انتظار القطار لأنه ينتظر أحـــدا ، زوجتى تتفقد الحاجيات مرة أخرى وبائع بيض يدور حولنا وينادى عليـه فى الحاح ، والدنيا حر لا يطاق والعرق يتصبب منى وبائع الفازوزة يدق على زجاجة ، دقاته تصل الى أذنى وتثقبها ، لى رغبـة فى ابتلاع قطعة ثلج أو شرب زجاجة ، الأصوات تتراكم وتسد عـلى عقلى طرق التفكير ، صفير قطار من بعيد ، قطار البضائع تحرك الى الأمام ، يجر خلفه عربات كثيرة محملة بأشياء لا رابط بينهـا .. سيارات ، جرارات ، عربة مملوءة بالقصب ، أجولة ، آلات رى ، والقطار يمر ، أسمدة ، اسمنت .. حديد والعربات تتوالى فى شريط سريع ، أغنام ، ابقار ، أحسست أننى أدور مع العربات وصوت العجلات وهى تصطدم بمفارق القضبان ، تك ، تك ، ثم تسرع أكثر ويرتفع التك أكثر ويتلاحق بسرعة .

ثم حركة شاملة ، الناس حولى يتحركون .. الحقائب ترتفـع فى الهواء ، نحيب وبكاء أصوات متقاطعة ارتبـاك وسـلامات لا تنقطع .. السيدات يحطن زوجتى ورحن يقبلنهـا فى عنف وبصوت .. الرجال يتصايحون وينهرون السيدات . المحطة تدور سلامات لا نهاية لها .. وجلست وصغير وحقـائب حولى وتحت قدمى اربطة وجوالات ، لفائف على الرف وحول المقاعد وأسـفل المقاعد وأمتلات مقصورة القطار وزوجتى تقف ضائعة منهكة .. ورجل أصلع عجوز ينظر الينا فى استطلاع وفضول ولا يتحرك ، وابعدت نظرى عنه فقد نفرت من نظرات عينيه ، زوجتى تلهث من الارهاق وتعيد ترتيب ملابسها ، درت بنظرى من نافذة القطار ، رايت أسيوط وهى تبتعد ، مبانيها الصفراء القديمة والبيضـاء

الجديدة ، مآذن الجوامع ، وابراج الكنائس ، بعض السيارات تنزلق فى احضانها والبعض الآخر يفر منها ، ورويدا ، رويدا ، بعدت أسيوط الجميلة ، الدافئة السمراء ، أو بعدت انا عنها ، والقطار يسرع ، وكأنه يخشى ضعفه من مقاومة حبها ، أجمل بلد فى الصعيد بلد الحب والجامعة ، والخزان ، بلد دسوقى وفاطمة البلد الذى علمتنى سر الحياه .

وداعا يا أسيوط ، لا وداع الى الأبد ، بل وداع ، الى حين ، سأعود اليك ومعى هذه المرة احلاما جديدة ، وافكارا جديدة ، ومعى أيضا أولادا صغارا اتيت بهم ليتعلموا الحياة فى اسيوط .

وداعا يا بلدى .. حيث عشت ، حيث ثرت ، حيث وجدت نفسى وتحررت من العبودية .. وداعا الى لقاء جديد ولن يمضى وقت طويل حتى اعود لاقف تحت شمسك وهى تنفذ الى عظامى .. الى دمى .. الى قلبى فانتشى .

وداعا يا دسوقى ، ويا زوجة دسوقى ، واكلاتك الجميلة ، العصيدة الرشته ، والعسل المخلوط بالسكر والسمن ، والحنان المخلوط بالحب .. وضحكت أربع نساء جميلات وقدمن لى ثلاث فطائر .

— تذوق طعامنا .. لقد طهيناه على الشمس .

— ومن الأرض اخذناه .

— ومن احبال الحزن ..

— ومن عرق فلاح اسمر .

— ومن دموع ارملة .

— ومن امنية عذراء .

— صنعناه لك .

ـ لكن لا .. لا اريد خبزكم .. ولا طعامكم .

ـ احقا .. لقد كنت تأكله من قبل .

ـ واليوم لا اقبله ، سأحفر فى الارض واعثر على حبة قمح نبتت من الطين واجعلها غذائى .

ـ اذا فعلت .. ستكون رائحة فمك كريهة ولن نأتى لك ولن ولن نلمسك .

ـ اذهبن لا اريدكن ابدا ..

يا عم مغاورى اين انت ، ارشدنى الى الطريق السليم ، انت ادرى اهل قريتى بنفوسهم وحكايات عجائزهم .. دلنى من اين ابدا وكيف ابدا ، لتذهب عنى دور جنيات ، سأحفر الارض باصابع الجرار واروى الزرع وأسير وسط الحقول ، اغرث النبت فى الأرض السوداء وابث تعليمى بين الناس ، فقط ارشدنى ارجوك .

ـ لا تخف يا بنى .

ـ انا خائف من الناس الذين سلبوك كفاحك واعطوه للجن .

لقد تغير الناس يا ولدى ، فقد مات العجائز .

ـ ولكن ..

لا يا ولدى لا .. ليس هنـاك « لـكر » بعد الآن . انظر .

ـ ماذا ياعم مغاورى ، ارى ارضا مفروشة بالزرع ، واربع بقرات ياكلن الحصى ، وحصان ابيض ياكل قدم غلام ، وساقية تدور تسكب ماء فى النهر ، وردة حمراء وسط الحقل تبكى ..

ـ لن تذهب بعيدا ، فنحن جنيات البحر .

ـ وهل نسيت جنيات الليل ، المتدثرات بالسواد .

ـ لماذا عدتن .. لا اريد رؤياكن .

- هل انت غاضب منا نحن جنيات الأمل والأحلام .. نحن ملكات الاسرار .

- لا كفاني ما عانيت من كلماتكن الجوفاء .

- الا تريد أن تصعد الى السحابة الزرقاء حيث الأقمار الصغيرة تلاعبك وتداعبك وتغني لك .

- لا .. أذهبن جميعا .

- ونحن جنيات الليل ، شريرات النفوس ، لا تخف هكذا .. فكم جلسنا معك ليالى باكملها ، وانت فى الصحراء وانت فى فراشك بجوار زوجتك ، انظر الى تلك الجواهر فى أيدينا ، نحن نعطى لمن يقترب منا .

- ماذا تعطين ؟

- جواهر الاحلام .

- عندى منها الكفاية .

- سوف تغضب وتحزن لرحيلنا عنك .

- اللعنة عليكن جميعا ، اذهبن عنى ، لا أحلام ولا جنيات .. أنا والناس فقط ..

وصرخت بغضب من كل أعماقى ، وسقط كوب الشاى وتحطم وضحكت زوجتى فى توتر . ورأيت حقــول قريتى ، إننى أعرف رائحتها من بعيد .

- انظرى ، ها هى قريتنا ، وبيتنا الجديد .

وابتسمت زوجتى فى سعادة ، ولم أشعر الا وأيادى أقاربى والسلامات والحقائب والأربطة واللفائف .

وصفر القطار واختفى، وساد الهدوء حولى وفى داخلى، لقدعدت الى مكانى الحقيقى يا أمى ، يا دســوقى ، ياجنيــات الأمل الحلو ،

ياقوم لقد عدت ، أسألوا عنى وانظروا الى وأنا أقود جرار الحصاد يملأ أجولة المخازن ، ويضع حبات القمح فى طواحين العذارى .. ويجلب الحطب لأفران الأرامل .. ليرتفع دخان الشتاء وتزغرد قدورهن .

يا زملاء القرار ، يا أصدقاء الجامعة ، أرسلوا الى بطاقاتكم فى العيد . اكتبوا على المظروف :

بجوار الترعة ، بعد الشجرة السابعة بعد الألف من الناحية اليمنى ...

يصل ويسلم الى الأسطى سائق الجرار رقم ٣٥ .



